

المائة كتاب
13/ 100

رواية

موت إيڤان إيليتش

ليڤ تولستوي



ترجمة وتقديم :
مها جمّال

الـ100 كتاب

100 /

ليف تُولســتُوي

موت إيڤــان إيليتش

ترجمــة وتقديم: مهَـا جمَـال

وزارة الثقافة



أمَّا قَبل

تولستُوي.. والـ100 كتاب

خلال إعدادي لقائمة "**المائة كتاب**"، منتصف العام الماضي، واطلاعي على القوائم المشابهة في الثقافات واللغات الأخرى، التي انطلقنا منها في إعداد قائمتنا الخاصة، لفت انتباهي أن تلك القوائم لا تلتزم بقاعدة "كتاب واحد للمؤلف"، بل تتضمن- في حالات معينة- أكثر من كتاب للمؤلف الواحد (ابتداءً بهوميروس: "**الإلياذة**" و"**الأوديسا**"، وصولاً إلى ماركيز: "**مائة عام من العزلة**" و"**الحب في زمن الكوليرا**"، مرورًا بدستويفسكي: "**الجريمة والعقاب**"، "**الأخوة كرامازوف**"، "**الأبله**"، وكافكا: "**المحاكمة**" و"**المسخ**" و"**القصر**"، فضلاً- بالطبع- عن تراجيديات شكسبير الأربع: "**هملت**"، "**عطيل**"، "**ماكبث**"، "**الملك لير**").

ولفت انتباهي- فيما يتعلق بتولستوي- أن ثمة إجماعًا بين القوائم المختلفة[1] على ثلاثة أعمال له: "**الحرب والسلام**"، "**أنَّا كارينينا**"، "**موت إيفان**

---

[1] نشير إلى أن الأعمال الواردة بتلك القوائم- باختلاف مع قائمتنا التي نقوم على

إيليتش"، بإجماع متفاوت بطبيعة الحال.

كنت أدري أن "**الحرب والسلام**" بلا ترجمة عربية كاملة موثوقة، سوى آخر محاولة توفي دونها الراحل الكبير سامي الدروبي، فأكملها أحد رفاقه المقربين. أما ما سوى ذلك، فلا يزيد عن ترجمات ذات طابع تجاري، صدرت عن دور لبنانية أو سورية (إذا استثنينا الترجمة **غير الكاملة** للروائي القدير إدوار الخراط).

وفي مرحلة جمع المعلومات، وجدت نسخةً من "**الحرب والسلام**" في أربعة مجلدات، طبعتها دار مدبولي (1995)*، مع عنوان فرعي على الغلاف يصفها بأنها "إلياذة العصور الحديثة". وبمراجعة سريعة، يتبين أنها طبعة منقولة- حتى بالصور الداخلية- عن طبعة سابقة أصدرتها دار اليقظة العربية، بسوريا (1953)، تحمل- على غلافها- نفس الوصف "إلياذة العصور الحديثة".

وبالنسبة للقارئ المحترف، فسيلحظ على الفور أن الطبعتين- السورية والمصرية- تخلوان من أسماء المترجم، أو المترجمين، فيما تضع الطبعة السورية عبارةً غامضةً تزيد الطين بلة: "**نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية نخبة من أسرة دار اليقظة العربية.. استنادًا إلى التراجم الفرنسية والإنكليزية وروجع النص على الأصل الروسي**". وهي العبارة التي تغاضت عنها طبعة "مدبولي". فمَن قام بالترجمة "مجهول"، بلا تحديد، وجملة "التراجم الفرنسية والإنكليزية" تُجهل

إصدار أعمالها- إنما هي قوائم لـ أعمال منشورة بالفعل في تلك الثقافات، في أكثر من طبعة، ومتاحة دائمًا لأي قارئ راهن.. وليست مشروعًا للترجمة والنشر، إلى حد أن القائمة الفرنسية ترصد- ضمن المعلومات المتعلقة بكل عمل- اسم دار النشر، وتاريخ الطبعة الأولى.

* صدرت طبعة مكتبة مدبولي، في أربعة أجزاء، في 2369 صفحة.

مصدر الترجمة المحدد، وتحيله إلى نوع من "التعمية" الغريبة، شأن مَن قام بالمراجعة المزعومة "على الأصل الروسي"، إن كان ذلك قد حدث فعلاً.

ذلك "تقليد" كان ساريًا لدى دور النشر "التجارية"، اللبنانية والسورية، التي اعتادت- منذ الخمسينيات- على تقديم أهم الإبداعات العالمية ملخصة، أو مختصرة اختصارًا مخلاً، موهمةً القارئ أنها إنما تقدم العمل كاملاً، كما هو في لغته الأجنبية. أما دور النشر "الثقافية"، فتلتزم بأصول وقواعد النشر، ومن بينها النص على اسم المترجم، الذي يتحمل- بدوره- المسئولية "المهنية" و"الأخلاقية" الكاملة عن عمله المنشور. أما اختفاء الأسماء، فيعطي الفرصة كاملة للعبث بالعمل، إلى هذا الحد أو ذاك، بلا أدنى مسئولية أدبية أو أخلاقية. ومع عمل روائي بهذه الشساعة والتعقيد، يصبح من الصعب للغاية التوصل إلى حدود مثل هذا العبث وضبطه، إلا بالمراجعة الدقيقة على النص الكامل الأجنبي، سواء الروسي أو غير الروسي. وهي مسألة بالغة الصعوبة.

وذلك ما أدى إلى استبعاد هذه الطبعة- للوهلة الأولى- من اختياراتنا، لأنها تتنافَى والمعايير التي وضعتها السلسلة للأعمال المنشورة بها، منذ عددها الأول: الاكتمال، والدقة، والثقة في المترجم.

وتعاني "أنَّا كارينينا" من وضعية أسوأ في ترجماتنا العربية. فما مِن ترجمة مصرية معروفة للرواية الشهيرة، رغم اكتشاف الأدب الروسي- وتولستوي في الصدارة منه- منذ الأربعينيات المصرية. والترجمات العربية المتاحة- في المواقع الإلكترونية- تبدو "سوقية"، تجارية، تعاني من أمراض هذا النمط الذي تخصصت فيه وتُصدِّره بعض دور النشر الخاصة في بيروت.. فضلاً عن الحجم الكبير للرواية الذي لا يُغري- وقد لا يسمح عمليًا- بالبدء في ترجمتها في ظل

ظروف حالية بالغة الالتباس والغموض والتقطع[5].

ذلك بعض ما دفعني إلى اختيار الرائعة الثالثة لتولستوي "**موت إيڤان إيليتش**"، لتمثيل أعمال المبدع الروسي الكبير في السلسلة الجديدة. قد تكون الرواية أقل شهرةً- في الثقافة المصرية والعربية- من الروايتين الأخريين، لكنها- لدى لدى العليمين بعالم تولستوي الإبداعي- ليست أقل إبداعية أو "تمثيلية"؛ وخاصةً أنها تمثل مرحلة النضج الفني الأقصى للمؤلف الروسي الكبير. وهو ما دفع القائمين على القوائم الفرنسية والإنجليزية (البريطانية والأمريكية) إلى اختيارها ضمن قوائمهم لأهم الأعمال الإبداعية في التاريخ الإنساني.

ها هي- إذن- رواية "**موت إيڤان إيليتش**"، التي كتبها تولستوي في مرحلة نضجه (1886)، مترافقةً- في ترجمتنا العربية هذه- بعدد من أهم أعماله القصصية التي لم يسبق أن اهتمت بها الترجمة المصرية والعربية من قبل، قدر اهتمامها بأعماله الروائية الشهيرة.

خطوةٌ أخرى على طريق "**المائة كتاب**".

رفعت سلاَّم

---

(5) في حوزتي ترجمة إنجليزية كاملة لـ"**أنَّا كارينينا**"، سبق أن أصدرتها "دار التقدم" الروسية في مجلدين، عام 1978، من ترجمة مارجريت ويتلين، بمجموع **1079** صفحة، من القطع **فوق المتوسط**. وهو ما يعني أنها يمكن أن تستغرق أكثر من عامين لإنجاز الترجمة، بما قد تصل إلى **ألفي صفحة** من قطع السلسلة، إذا ما تفرغ مترجمها لها. فمَن ذا الذي يضمن الظروف في العامين القادمين، إن عثرنا على المترجم القابل للمغامرة؟

مقدمـــة

هو الكونت **ليف نيكولايڤيتش تولستوي** (Лев Никола́евич Толсто́й؛ 9 سبتمبر 1828- 20 نوفمبر 1910)، أحد أعمدة الأدب الروسي والعالمي ابتداءً من القرن التاسع عشر.. وسيد الرواية الواقعية، وأحد عظماء الروائيين في التاريخ الأدبي العالمي. وقد تأسست مكانته في العالم الروائي استنادًا إلى ثلاثة أعمال "**الحرب والسلام**" (1869)، و"**أنَّا كارينينا**" (1877)، و"**موت إيفان إيليتش**" (1886).

لكن مكانته الروائية بدأت في التحقق مبكرًا، منذ "سكتشات سيڤاستوبول" (1855)، التي استندت إلى خبراته في "حرب القِرم"، وما تبعها من شبه سيرته الذاتية الثلاثية: "الطفولة" و"الصِّبا" و"الشباب" (1855ـ1858)؛ فيما يضم نتاجه الإبداعي أيضًا أعمالاً أخرى رفيعة المقام في الرواية، والقصص القصيرة، والرواية القصيرة (من أهمها "**الحاج مراد**" و"**سعادة أسرية**")، والمسرح، والمقال.

لكنه- في نفس الوقت- شخصية ثقافية بالغة التركيب، يمتلك رؤية أخلاقية وجمالية فريدة، توصل إليها بعد أزمة روحية عاناها في سبعينيات القرن التاسع عشر، عُرف- بناءً عليها- أيضًا كمفكر أخلاقي وإصلاحي

اجتماعي. وتفسيره الحرفي لتعاليم المسيح الأخلاقية، بالتركيز على "موعظة الجبل"، قادته- في أخريات حياته- إلى أن يصبح فوضويًا مسيحيًا. وأفكاره عن المقاومة المسالمة، التي عبر عنها في أعمال من قبيل "مملكة الرب بداخلك"، كان لها تأثير بالغ على بعض شخصيات القرن العشرين، من قبيل المهاتما غاندي ومارتن لوثر كنج.

ولد تولستوي في ياسنايا بوليانا، إقطاعية الأسرة في إقليم تولا الروسي، في أسرة عريقة النبالة. وقد بدأ- عام 1844- في دراسة القانون واللغات الشرقية بجامعة كازان. ووصفه أساتذته بأنه "غير قادر ولا راغب في التعلم". وترك الجامعة في منتصف دراسته، ليعود إلى ياسنايا بوليانا، وبعدها يقضي غالبية وقته بموسكو وسانت بطرسبرج. وفي عام 1851، بعد تكبده ديونًا ضخمة في المقامرة، ذهب مع شقيقه الأكبر إلى القوقاز، والتحق بالجيش. وخلال هذه الفترة، بدأ الكتابة.

خلال حياته الأدبية، تلقى الإكبار من معاصريه. كان دستويفسكي يعتبره أعظم الروائيين الأحياء. ولدى قراءة جوستاف فلوبير لترجمة "الحرب والسلام"، أبدى إعجابه: "يا له من فنان، ويا له من محلل نفسي!". وكتب أنطون تشيكوف- الذي كان كثيرًا ما يقوم بزيارته في إقطاعيته- "حينما يملك الأدب أي تولستوي، فمن السهل والمبهج أن تكون كاتبًا؛ حتى لو كنت تدري أنك لم تحقق شيئًا، وأنك ما تزال لا تحقق شيئًا، وذلك ليس أمرًا مريعًا كما ينبغي أن يكون، لأن تولستوي يحقق من أجل الجميع". وقد اعتبرته ڤرجينيا وولف "أعظم الروائيين".

وعاش تولستوي حياة ممتدة وحافلة بالمنجزات الإبداعية، وكان شاهداً

على عصر امتد من عهد الرِّق، مروراً بمنتصف القرن التاسع عشر، ومحاولات الإصلاح، إلى انتفاضة عام 1905، إلى عتبات ثورة فبراير 1917 الروسية،التي كانت مقدمة لثورة أكتوبر الاشتراكية في أكتوبر من نفس العام.

ومجمل هذه المنجزات هي التي دفعت لينين- قائد ثورة أكتوبر- إلى اعتبار تولستوي "مرآة الثورة الروسية"، لأنه استطاع أن يطرح، في أعماله، عدداً الكثير من "المسائل الكبرى، بمقدرة فنية رفيعة، بلغ إتقان تناولها درجة عالية أهلته ليحتل أحد الأماكن الأولى في تاريخ الأدب الفني العالمي، وأن أعماله جاءت خطوة إلى الأمام ، في تطور الإنسانية، في المجال الفني"*.

كما يرصد لينين أيضًا "تميز تولستوي بإخلاصه لمصالح الشعب، وبإيمانه بقوى الشعب وبمستقبله، وبإنسانيته الحقيقية، وبتطلعاته، إلى تصوير الحياة تصويراً صادقاً، وبنضاله، الذي لا يعرف الهوادة ضد النظرية الرجعية "الفن من أجل الفن"؛ جعلت هذه الميزات كلّها، التي تميّز بها أدب تولستوي، جعلته أدباً عالمياً وجماهيرياً، واسع الانتشار، ليس في روسيا، وفي البلدان الغربية فحسب، بل في العالم كلّه بأسره".

تناول تولستوى فى قصصه الفلاح المقهور، والفقير، والإقطاعى القاسي، والقيصر، والنبلاء، والمرأة، وذوي الإعاقة.. وحق كل هؤلاء فى حياة مسالمة خالية من الشرور. ولم يكف عن تسجيل الحياة المنحرفة لأراذل الملوك والأباطرة والديكتاتوريين والقادة العسكريين، ووصف تلك

---

* د.ممدوح أبو الوي، **تولستوي ودوستيفسكي في الأدب العربيّ**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999.

الحياة، التي يلعبون فيها دور "تشويه الحقائق"، وكذلك منظومة العلاقات الاجتماعية، التي كانت سائدة ، آنذاك.

كما كان اهتمام تولستوي، بوصفه مفكراً مبدعاً، منصبًّا على تدبر مسيرة الإنسان، وتمحيص الغاية من وجوده وحياته ، فوجد أن حل هذه الإشكالية يكمن في التجربة التاريخية: "هدف حياة الإنسان الكفاءة العالية للتطور متعدد الوجوه والجوانب، لجميع المخلوقات.. هل أتبصِّر ، وأنا أنظر إلى التاريخ، فأرى أن الجنس البشري بأسره قد سعى، دوماً، إلى بلوغ هذه الغاية؟ وذلك لأن المستقبل منوط بالماضي، ومتشابك به".

ويمكن أن نجد بعض هذه الأفكار في رواية "**آنّا كارينينا**" (1873ـ1877). تبتدئ الرواية بالتصدير: "لي النقمة، وسأجازي، قال الرب". ويعتبر هذا التصدير مفتاحاً لفهم الرواية. فلا يحق للإنسان إدانة أخيه الإنسان، فالخالق ـ وفقًا لهـ هو مَن يحاكمنا جميعاً.. لا لأنّ نظام المجتمع غير طبيعي وغير عادل فحسب، وإنما ـ في أيّ نظامٍ اجتماعي ـ لا يجوز للبعض إدانة البعض الآخر، لأن ".... قوانين الروح الإنسانية مجهولة لا يعرفها العلم، وغير محددة، ومحاطة بالأسرار؛ ولذلك فلا يوجد، ولا يمكن أن يوجد، حكماء ولا قضاة".

وصدَّر تولستوى قصة "**الشمعة**" بـ"لا تقاوموا الشر" (إنجيل متّى: 5،39). وهي فضيلة سامية نادى بها المسيح. وعقيدة عدم مقاومة الشر ـ لدى تولستوي ـ هي الوحيدة التي توفر إمكانية اقتلاع الشرِّ من جذوره، سواء من قلوبنا أم من قلب القريب. هذه العقيدة تُحرِّم القيام بما يُخلِّد ويُفاقم العنف في العالم. فذلك الذي يهاجم الآخر، ويسيء إليه، يُضرِم ـ لدى الآخر ـ شعور الكراهية، جذر كلِّ الشرور. وإيذاء الآخر لأنه سبق أن

قام بالإيذاء إنما يعني تكرار العمل السيء بحقه وبحقِّ أنفسنا؛ يعني خلق، أو- على الأقل- تحرير وتشجيع الشيطان الذي نريد طرده. ولا يمكن طرد شيطان بوساطة شيطان، ولا يمكن تطهير الباطل بوساطة الباطل، والشرُّ لا يمكن هزيمته بالشرِّ.

اللامقاومة هي المقاومة الحقيقية الوحيدة للشرِّ. هي التي تقطع رأس الأفعى. إنها تقتل الشعور الشرير ثم تمحقه في نهاية المطاف.

وقد قاوم تولستوي الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا، ودعا إلى السلام وعدم الاستغلال، وعارض القوة والعنف في شتى صورهما. ولم تقبل الكنيسة بآرائه التي انتشرت في سرعة، فكفَّرته وأبعدته عنها. وأعجب بآرائه عدد كبير من الناس، كانوا يزورونه في مقره، بعد أن عاش حياة المزارعين البسطاء، تاركًا عائلته الثرية المترفة.

وموت تولستوي، مثل حياته، كان حدثا تاريخيا، خاصّة في روسيا. فقد تقاطر الكتّاب والفنّانون والأتباع والفلاحون على ضيعته، واكتظّت القطارات- من موسكو إلى كراسنايا- بالناس الذين قدموا لحضور جنازته. وحمل نعشه حشد من الفلاحين، وأنشدت اللحن الجنائزي جوقة من مائة منشد، ومشى في أثر النعش موكب من حوالي عشرة آلاف شخص.

لكن الكنيسة الروسية- التي سبق أن أصدرت قرارًا بطرد تولستوي منها- منعت رجال الدين من حضور جنازته، لأنه كان قد صرَّح علناً بأن علاقته مع الله لا تحتاج إلى وسطاء. كما أخذت الكنيسة على تولستوي أيضًا بعض كتاباته التي رأت أنها أسهمت في تسريع صعود البلاشفة إلى الحكم في روسيا عام 1917.

في يوم وفاة تولستوي والأيّام التي تلته، أرسلت الدولة الجواسيس

لتعقّب كلّ حركة وخطوة من أتباعه خوفًا من أن يشجّع موته الملايين من مؤيّديه- من الشباب والفلاحين والمثقّفين- على القيام بتحرّك شعبي، أو ثورة ما. واعتمادًا على الروايات الصحفية والمراسلات الشخصية وتقارير الشرطة والتعليمات السرّية والبرقيات والرسائل والمذكّرات، فإن المشهد العام لأيّام تولستوي الأخيرة كان انعكاسا حيّا لامبراطورية هشّة تقف بقلق على حافّة الحرب والثورة.

ومن كُتب تولستوى المشهورة "**ما الفن؟**"، الذي أوضح فيه أن الفن ينبغي أن يوجه الناس أخلاقيًّا، وأن يعمل على تحسين أوضاعهم، ولابد أن يكون بسيطًا يخاطب الناس. قال: "الفن يمكن أن يثير فينا مشاعر غير سارة ويصور مناظر حزينة، فالعمل الفني ليس سجلاً للجمال الموجود بالفعل في موضوع آخر، وإنما هو تعبير عن انفعال يشعر به الفنان وينقله للمشاهد".

"فالفن يعبر عن موضوعات شديدة التباين، منها ما هو قبيح ولا يرقى إلى مستوى اللياقة الفنية التي كان يبحث عنها الكلاسيكيون الجدد، بل- في المقابل- يعبر الفن عن القبح، دون أن يلجأ الفنانون إلى تجميله أو تخفيفه، كما فعل أصحاب نظرية المثل الأعلى".

والفن- في نظر تولستوي- هو (لغة) تجمع الناس في انفعالات مشتركة، أو كما نطلق عليه (شعور جمعي واحد). وعلى ذلك، فإن الفن الذي لا يستطيع التأثير في الآخرين إما أن يكون فنًّا رديئًا، أو ليس فنًّا على الإطلاق. كما يُعَرِف تولستوي الفن على أنه انفعال شخصي يتكون لدى الفنان تجاه موضوع ما، ويحاول الفنان أن ينقل هذا الانفعال إلى الآخرين عن طريق الوسائط التعبيرية للفن، ويهدف من وراء ذلك إلى أن يتأثر

الآخرون بنفس الانفعال الذي تأثر به الفنان.

ويقول تولستوي إن عملية التوصيل هي المقياس الوحيد، أو الامتياز الوحيد في الفن. فالعمل الفني- من وجهة نظره- يكون ذا قيمة جمالية عندما يستطيع عدد كبير من الناس أن يفهموه، ويمكن لذلك العمل أن ينقل إليهم انفعالاً ما. ويضيف تولستوي إن القول بأن الفن يمكن أن يكون فنًّا حقيقيًّا، ويكون- في الوقت ذاته- غير مفهوم هو قول بعيد كل البعد عن الصواب، لأن الفن الجيد دائمًا ما يؤدي إلى متعة جمالية.

كان تولستوي منفتحًا على ثقافات العالم، عليما بالثقافة الفرنسية- على سبيل المثال؛ ثقافة النخبة الروسية. لكنه- في نفس الوقت- تطلع إلى الشرق، وقرأ القرآن في ترجمته الفرنسية، شأن كثير من كبار الأدباء الروس. وثمة نسخة من القرآن ما تزال بمكتبة ليف تولستوي في بيته الذي تحول إلى متحف أدبي في قريته "ياسنايا بوليانا". وقد ترك على هوامشها بعض الملاحظات، التي تدل على تمعنه في قراءة القرآن.

وكتب تولستوي إلى ابنه، الذي كان يزور مصر، ووصل إلى مدينة أسوان في عام 1904، رسالةً يطلب يطلب منه فيها أن يزوده ببعض المعلومات حول الشرق.

وجرت مراسلات- في العام نفسه- بين تولستوي وبين الشيخ محمد عبده، مفتي الديار المصرية، وشيخ الأزهر آنذاك. كتب الشيخ محمد عبده إلى تولستوي، وأجابه تولستوي. ومن خلال قراءة مراسلاتهما، ندرك أنّ نظرتهما إلى أمور العالم متشابهة ومتقاربة.

ومـا مـن أدنى شـكٍ في أنّ الأدب الروسـي، وبوجـهٍ خـاصٍ أدب تولستوي، قد لعب دوراً هاماً في تطور الاتجاه الواقعي في الأدب العربي المعاصر، وكذلك في طرح الكثير من الأسئلة وفي معالجتها.

لكن الأدباء العرب، في مطلع القرن العشرين، لم يتطرقوا في كتاباتهم حول تولستوي إلى مؤلفاته الإبداعية، بقدر ما اهتموا بمؤلفاته الفلسفية. وبوجهٍ خاصٍ، تحدث الأدباء العرب عن نضال تولستوي ضد الأغنياء والملكية الخاصة؛ ولعل مقالة الأديب العربي أمين الريحاني، ومراسلات الإمام محمد عبده ومصطفى لطفي المنفلوطي خير دليلٍ على ذلك.

لقد رأوا فيه "المصلح الاجتماعي"، ولم يروا الروائي العملاق. وخلت ملاحظاتهم من ذكر أعماله الروائية الكبرى، أو الإشارة إليها.

كتب الأديب أمين الريحاني في مقالةٍ له بعنوان "أبناء البؤس" حول تولستوي: "لاشك أنّ كتابات تولستوي تسر الملايين وتسليهم، إذا لم نقل تفيدهم وتهذبهم أيضاً، ومن جملة المعجبين بهذا الرجل العظيم كثيرون من النواب ورجال الدولة في روسيا. ولكن لو انتخب تولستوي ليجلس مع المشرعين، ونهض ليقترح على المجلس سن شريعةٍ فيها صيانة حقوق الجمهور لا حقوق الأفراد، لو نهض فقرأ على زملائه فصلاً من إحدى رواياته، أو مقالةً من مقالاته في السياسة والاجتماع، وطلب إليهم العمل بما جاء فيها فماذا تراهم يفعلون؟ ألا يضحكون في وجهه...؟"

وقد رثاه أحمد شوقي:

تولُستويُ تُجري آيَةُ العِلمِ دَمعَها......... عَلَيكَ وَيَبكي بائِسٌ وَفَقيرُ
وَشَعبٌ ضَعيفُ الرُكنِ زالَ نَصيرُهُ...... وَما كُلُّ يَومٍ لِلضَعيفِ نَصيرُ
وَيَندُبُ فَلّاحونَ أَنتَ مَنارُهُم.............. وَأَنتَ سِراجٌ غَيَّبُوهُ مُنيرُ

يُعانونَ فِي الأَكواخِ ظُلماً وَظُلمَةً........ وَلا يَملُكونَ البَثَّ وَهوَ يَسير
تَطوفُ كَعيسى بِالحَنانِ وَبِالرِضى...... عَلَيهِم وَتَغشى دورَهُم وَتَزورُ
وَيَأسى عَلَيكَ الدينُ إِذ لَكَ لُبُّهُ............ وَلِلخادِمينَ الناقِمينَ قُشُورُ
أَيَكفُرُ بِالإِنجيلِ مَن تِلكَ كُتبُهُ .... أَناجيلُ مِنها مُنذِرٌ وَبَشيرُ
وَيَبكيكَ إِلفٌ فَوقَ لَيلى نَدامَةً ....غَداةَ مَشى بِالعامِرِيِّ سَريرُ
تَناوَلَ ناعيكَ البِلادَ كَأَنَّهُ ....يَراعٌ لَهُ في راحَتَيكَ صَريرُ

كما رثاه حافظ إبراهيم، وجميل صدقي الزهاوي.

وسيكون للثقافة المصرية والعربية أن تنتظر جيلاً آخر من المثقفين والأدباء- في الأربعينيات التالية- هو الذي سيكتشف الصوت الإبداعي الشاهق لتولستوي (مع أقرانه الروس الكبار: تشيكوف ودستويفسكي وجوجول، إلخ)، ويقدمه إلى جيل آخر وآخر من القراء، وتبدأ الترجمة الجادة لأعماله الإبداعية المختلفة.. وفي الصدارة منها "**الحرب والسلام**" و"**أنَّا كارينينا**" و"**موت إيفـان إيليتش**".

موت إيڤــان إيليتش

هذا العمل ترجمة دقيقة وكاملة لرواية

Lev Nikolayevich Tolstoy,

THE DEATH OF IVAN ILYCH

1886

1

أثناء الاستراحة في محاكمة ميلڤينسكي- بمجمَّع المحاكم الضخم- التقى المدعوون المدنيون والأعضاء في حجرة إيجوروڤيتش شيبيك الخاصة، حيث دار الحوار حول قضية كارسوڤسكى الشهيرة. ذكر ڤيدور ڤازيليڤيتش بلباقة أنها غير خاضعة لنطاق محكمته، وقال إيڤان إيجوروڤيتش العكس، بينما لم يتخذ بيتر إيڤانوڤيتش أي موقف- حيث لم يشارك منذ البداية في الحوار- واكتفى بالنظر في جريدة الجازيت التي استلمها للتو:

"أيها السادة"، قال، "لقد مات إيڤان إيليتش!"

"كلاً، لا تقل ذلك!"

"ها هي، اقرأها بنفسك"، رد بيتر إيڤانوفيتش، وهو يسلم ڤيدور الجريدة التي ما تزال رطبة من ضغطه عليها. كانت الكلمات محاطةً

بحدود سوداء "براسكوفيا فيدوروفنا جولوفينا تنعي بألم عميق للأقارب والأصدقاء موت حبيبها وزوجها إيفان إيليتش جولوفين، عضو المحكمة، وقد حدثت الوفاة في الرابع من فبراير من هذا العام 1882. وستقام الجنازة يوم الجمعة، في الواحدة ظهرًا".

كان إيفان إيليتش زميلاً للسادة الحاضرين، وكان محبوبًا بينهم. مرض لأسابيع بمرض قيل إنه لا شفاء منه. ولكن منصبه ظل محجوزًا له، لكن كان ثمة تخمينات بأنه- في حالة وفاته- سيُعين اليكسييف في منصبه، وأن فينيكوف أو شتابل سيليه. لذلك، فعند سماع خبر وفاة إيفان إيليتش، كانت الخاطرة الأولى لكل من هؤلاء السادة المتواجدين في الحجرة الخاصة هي أن التغيير أو الترقية ستتم بينهم أو بين معارفهم.

"سأتأكد من حصولي على منصب شتابل أو فينيكوف"، فكَّر فيدور فازيليفيتش. "لقد وعدوني بذلك منذ مدة طويلة، وهذه الترقية تعني زيادة ثماني مائة روبل في العام بالإضافة إلى البدلات".

"الآن ينبغي أن أقدم طلبًا لنقل زوج أختي من كاليوجا"؛ فكَّر بيتر إيفانوفيتش. "ستسعد زوجتي للغاية، ولن تقول بعد ذلك إنني لا أفعل أي شيء تجاه الأقارب".

صاح بيتر إيفانوفيتش: "اعتقدتُ أنه لن يترك السرير مرةً ثانية. إنه لأمر محزن".

"ولكن ما الذي كان يعانيه بالضبط؟"

"لم يستطع الأطباء أن يحددوا- لقد استطاعوا على الأقل- لكن لم يقل

أيٌّ منهم شيئًا مختلفًا. وحين زرتُه آخر مرة، اعتقدت أنه يتحسن".

"ولم أره منذ أيام الأجازة. وكنت دائمًا أنوي زيارته"

"هل لديه أية ممتلكات؟"

"أعتقد أن زوجته لديها القليل.. لكنه شيء يشبه العبث".

"علينا أن نزورها، لكنهم يقيمون بعيدًا للغاية"

"بعيدًا عنك، تقصد. كل شيء بعيد عن مكانك"

قال بيتر إيڤانوفيتش، وهو يبتسم لشيبيك: "هكذا ترى أنه لا يستطيع أبدًا مسامحتي على إقامتي في الجانب الآخر من النهر". ثم عادوا إلى المحكمة، وهم يتحدثون عن المسافات بين أجزاء المدينة.

وبجانب كل الاعتبارات المتعلقة بالتنقلات والترقيات المحتملة الناجمة عن موت إيڤان إيليتش، أثارت الحقيقة المجردة لموت أحد المعارف القريبين ـ في العادة ـ لدى كل من سمعوا بها، الشعور بالرضا. "إنه هو مَن مات، لا أنا".

أحس كل واحد أو اعتقد: "حسنًا، هو ميت لكني ما أزال حيًّا". لكن أكثر المقربين من معارف إيڤان إيليتش، بمن فيهم مَن يُدعون أصدقاءه، لم يستطيعوا إلا أن يفكروا أيضًا في أداء واجبات اللياقة المرهقة، بحضور مراسيم الجنازة وزيارة مواساة للأرملة.

كان فيدور ڤايزيڤيتش وبيتر إيڤانوفيتش أقرب المعارف إليه. فقد درس بيتر إيڤانوفيتش القانون مع إيڤان إيليتش، واعتبر نفسه تحت أمر

إيڤان إيليتش.

وإذ أبلغ زوجة إيڤان إيليتش- في العشاء المقام بعد الجنازة- أن من الكياسة أن ينتقل أخوها إلى دائرتهم، فقد ضحى بيتر إيڤانوفيتش بقيلولته، وذهب بملابس المساء إلى بيت إيڤان إيليتش.

وقفت في المدخل عربة وسيارتا أجرة. مستندًا على الحائط في القاعة بالأسفل، إلى جوار شماعة، كان ثمة غطاء نعش مغطًى بقماش مُذهب، مزينًا بحبل وشُرابات ذهبية، تم تلميعها ببودرة معدنية. خلعت سيدتان ترتديان الأسود معطفيهما المصنوعين من الفراء. عرف بيتر إيڤانوفيتش إحداهما، هي أخت إيڤان إيليتش، لكن الأخرى كانت غريبة عليه. كان زميله شوارتز يهبط السلالم، لكنه عندما رأى بيتر يدخل توقف شوارتز، وغمز له، كأنه يقول: "لقد ترك إيڤان إيليتش الكثير من الفوضى- ليس مثلي ومثلك".

اتخذ وجه شوارتز ذو السوالف الطويلة، وقوامه النحيف في رداء المساء، مظهر الوقار الوسيم الذي تناقض مع شخصيته المرحة، وكان له مذاق حاد هنا، أو هكذا بدا لبيتر إيڤانوفيتش.

سمح بيتر إيڤانوفيتش للسيدتين أن تسبقاه، وتبعهما ببطء على السلم. لم ينزل شوارتز، ومكث في مكانه، وفهم بيتر إيڤانوفيتش أنه أراد ترتيب مكان للعب البريدج تلك الليلة. صعدت السيدتان إلى حجرة الأرملة، وضغط شوارتز على شفتيه بجدية، ولكن نظرة مرحة من عينيه أشارت بغمزة حاجبيه إلى الغرفة اليمنى حيث يتمدد الجثمان.

لم يعرف بيتر إيڤانوڤيتش حقيقة شعوره، شأنه شأن أي أحد في مثل

هذه المناسبة، ولم يعرف ماذا يفعل. كل ما عرفه أن الإنسان بمأمن دائمًا عندما يرشم بالصليب على نفسه. لم يكن متأكدًا من ضرورة القيام بالانحناء وهو يفعل ذلك. لذلك، فقد اتخذ موقفًا محايدًا. فعند دخوله الحجرة، بدأ بانحناءة خفيفة تشبه القوس. وفي ذات الوقت، كلما أتيحت له فرصة تحريك رأسه أو ذراعه، كان يرصد مَن كان في الحجرة. شابان يبدو أنهما أولاد أخيه، أحدهما كان طالبًا في المدرسة الثانوية، وكان يغادر الحجرة، يعبران كما عبر هو.. بانحناءة.. تقف سيدة عجوز بلا حراك، وأخرى ذات حاجبين مقوسين بطريقة غريبة كانت تهمس للعجوز. وقف منشد الكنيسة- حازمًا وقويًا مرتديًا عباءة الراهب- يتلو بصوتٍ عالٍ، وبطريقة تمنع أي نشاز. نثر چيراسيم، مساعد رئيس الخدم، شيئًا على الأرض، وهو يقف بجوار إيڤانوڤيتش. أدرك بيتر إيڤانوڤيتش- من تلك الحركة- انبعاث رائحة خفيفة نتيجة لتحلل الجثمان.

في آخر مرة زار فيها بيتر إيڤانوڤيتش إيڤان إيليتش، رأى چيراسيم، كان إيڤان إيليتش مولعًا به، وكان چيراسيم يقوم بدور الممرض.

استمر بيتر إيڤانوڤيتش برشم الصليب، منحنيًا بخفة على الجثمان، وفي مكان وسَطٍ بين الكفن، المنشد، المنضدة في ركن الحجرة. وعندما أدرك أن حركة ذراعه بالرشم على نفسه تستغرق وقتًا طويلاً، بدأ يكف عنها ونظر إلى الجثمان.

رقد المُتوفَّى، كما يرقد المتوفون بطريقة خاصة، تغطس أطرافه المتيبسة في مساند ناعمة في الكفن، والرأس تنحني على الوسادة إلى

الأبد. كان جبينه الشمعي الأصفر ببقعه الشاحبة يعلو هيكله الغارق، محشورًا بطريقة غريبة، وأنفه البارزة تضغط على الشفة العليا. كان قد تغير كثيرًا، أكبر سنًّا وأنحف من آخر مرة رآه فيها بيتر إيڤانوڤيتش.. ولكنه كمُتوفًى كان وجهه أكثر وسامة وبشاشة عما كان أثناء حياته، وذلك التعبير على وجهه يقول إن ما كان ضروريًّا قد تم، وبصورة صحيحة. وبجانب ذلك التعبير، كان يحمل نوعًا من العتاب والتحذير للأحياء. بدا هذا التحذير لبيتر إيڤانوڤيتش لا مكان له، أو- على الأقل- ليس موجهًا إليه.

أحس بعدم الراحة، وأسرع يرشم على نفسه مرةً بعد أخرى، واستدار وخرج مسرعًا، غير مبال باللياقة، كما اعتاد أن يكون.

في الحجرة المجاورة، كان شوارتز منتظرًا، مباعدًا بين ساقيه، وكلتا يديه تعبثان في أعلى القبعة من الخلف. مجرد رؤية هذا الشخص العابث المهندم أنعشت بيتر إيڤانوڤيتش. كان يشعر بأن شوارتز فوق كل ما يحدث، وأنه لن يخضع لأية تأثيرات محبطة. كانت نظرته توحي بأن الطقس الكنسي لوفاة إيڤان إيليتش لا تعني المساس بترتيبات تلك الجلسة- بمعنى آخر- أن ما حدث لا يمنع فتح علبة جديدة من الورق، وإعادة ترتيب الأوراق، فيما الخادم يضع شموعًا جديدة فوق المنضدة: في الحقيقة، فما من سبب كان يدعو لافتراض أن تلك الحادثة ستعرقل قضاء الأمسية بسرور. وقد همس بذلك لبيتر إيڤانوڤيتش، عندما مر به، مقترحًا أن يتقابلا للعب عند فيدور ڤازيليڤيتش. لكن كان من الواضح أن بيتر إيڤانوڤيتش لم يكن له أن يلعب البريدج هذا المساء. براسكوڤيا فيدروڤنا (المرأة القصيرة السمينة التي- رغم كل الجهود- واصلت، على

النقيض، تخفيف الحمل من على كتفيها، والتي كان لها نفس تقوس الحواجب غير العادية للسيدة الواقفة بجوار الكفن)، فيما ترتدي الأسود، ورأسها مغطاة بالدانتيل، خرجت من غرفتها مع بعض السيدات، وقادتهم إلى الغرفة التي يرقد بها الجثمان، وقالت: "ستبدأ المراسم في الحال. من فضلكم، ادخلوا".

وقف شوارتز ساكنًا، منحنيًا انحناءةً غير محددة، دون أن يتضح ما إن كان يقبل أو يرفض هذه الدعوة. وإذ تعرفت براسكوڤيا فيدوروڤنا على بيتر إيڤانوڤيتش، تنهدت واقتربت منه، وأخذت يده، وقالت: "أعرف أنك كنت صديقًا حقيقيًّا لإيڤان إيليتش".. ونظرت إليه منتظرةً رد فعل مناسب. كان بيتر إيڤانوڤيتش يدرك ذلك، ويدرك أنه من الصواب أن يرشم على نفسه في تلك الحجرة، لذلك كان عليه أن يضغط على يدها، يتنهد ويقول: "صدقيني". فعل ذلك، وأحس- كما كان يرغب- بتلك النتيجة: إنه هو وهي يتلامسان.

قالت الأرملة: "تعال معي. أريد أن أتحدث معك قبل أن تبدأ المراسم. أعطني ذراعك".

أعطى بيتر إيڤانوڤيتش ذراعه لها، ودخلا إلى الحجرات الداخلية، مرورًا بشوارتز الذي غمز له بتعاطف.

قالت نظرته المرحة: "أذلك ما يؤدي إلى البريدج ! فلا تعترض إذا ما وجدنا لاعبًا آخر. وربما يمكنك الالتحاق بنا عندما تهرب".

وما يزال بيتر إيڤانوڤيتش يتنهد بعمق وإحباط، وما تزال براسكوڤيا فيدوروڤنا تضغط على ذراعه بامتنان. وحين وصلا إلى قاعة الاستقبال

ذات التنجيد الوردي والمضاءة إضاءة خافتة، جلسا إلى المنضدة، هي على كنبة، وهو على حشية خفيضة، أصدرت زنبركاتها صريرًا متقطعًا نتيجة وزنه. كانت براسكوڤيا فيدوروڤنا على وشك تنبيهه إلى أن يجلس على كرسي آخر، لكنها أحست أن مثل هذا التنبيه لا يتلاءم مع حالتها، فغيرت رأيها. عندما جلس بيتر إيڤانوڤيتش على الحشية، تذكر كيف رتب إيڤان إيليتش هذه الحجرة، وكيف استشاره بشأن هذا القماش الكريتون الوردي ذي الأوراق الخضراء.

كانت الحجرة مليئة بالأثاث والقطع الصغيرة من التحف. وقبل أن تصل إلى الكنبة، علق دانتيل شال الأرملة الأسود بطرف المنضدة، ونهض بيتر إيڤانوڤيتش لتخليصه، فنهضت أيضًا زنبركات الحشية من ثقله، وقامت بدفعه. حاولت الأرملة تخليص الشال بنفسها، وجلس بيتر إيڤانوڤيتش من جديد، قامعًا زنبركات الحشية المتمردة من تحته. لكن الأرملة لم تستطع تحرير نفسها تمامًا، فنهض بيتر إيڤانوڤيتش مرةً أخرى.. ومرةً أخرى، تمردت الحشية، بل قرقعت. وعندما انتهى كل ذلك، أخرجت منديلا قطنيا نظيفًا وبدأت تبكي. هدَّأت قصة الشال والصراع مع الحشية من مشاعر بيتر إيڤانوڤيتش، وجلس هناك بنظرة متجهمة على وجهه. قطع هذا الموقف الحرج سوكولوڤ، خادم إيڤان إيليتش، الذي جاء ليقدم تقريرا بأن التخطيط الذي اختارته براسكوڤيا فيدوروڤنا للمقبرة سيكلفها مائتي روبل. توقفت عن البكاء، وهي تنظر إلى بيتر إيڤانوڤيتش نظرة الضحية، وأشارت باللغة الفرنسية إلى أن هذا بالغ القسوة عليها. قام بيتر إيڤانوڤيتش بإيماءة موحية بأنه على اقتناع تام بأن ذلك لابد أن يتم حقًا كما ينبغي.

"تفضل بالتدخين"، قالت له بصوت ساحر لكن متقطع، واستدارت لمناقشة سوكولوف في سعر إعداد المقبرة.

بينما كان بيتر إيڤانوڤيتش يشعل سيجارته، سمع سؤالها عن الأسعار المختلفة للمقابر، وقرارها بالاختيار. بعد ما أتمت ذلك، أعطت تعليماتها بإحضار الكورال. حينئذٍ، غادر سوكولوف الحجرة.

قالت لبيتر إيڤانوڤيتش: "إنني أعتني بكل شيء بنفسي"، وهى تقلب الألبومات الموجودة على المنضدة؛ وإذ لاحظت أن المنضدة معرضة للخطر بسبب رماد السجائر، مررت له سريعًا مطفأة السجائر، قائلة: "إنه من التكلف أن أقول إن حزني سيمنعني من حضور الشئون العملية. على العكس، فلو كان لشيءٍ ما- لن أقول يواسيني- لكن يشغلني، فهو متابعة كل شيء يتعلق به". ومرةً ثانية، أخرجت المنديل كأنها تتأهب للبكاء، لكنها فجأةً- كأنما تسيطر على مشاعرها- هزت نفسها، وبدأت تتحدث بهدوء: "هناك شيءٌ ما أود التحدث عنه معك".

انحنى بيتر إيڤانوڤيتش، مسيطرًا على زنبركات الحشية، التي سرعان ما بدأت في الارتعاش تحته.

"كان يعاني بصورة مريعة في الأيام الماضية".

"حقًا؟"، سأل بيتر إيڤانوڤيتش.

"نعم، بصورة مريعة! كان يصرخ بلا توقف، لا لدقائق، بل لساعات. وطوال الأيام الثلاثة الأخيرة، كان يصرخ بلا توقف. كان ذلك فوق الاحتمال. لا أستطيع أن أفهم كيف تحملت ذلك.. كان كان

يمكنك أن تسمعه على بعد ثلاث حجرات. آه، كم عانيت!".

"هل كان بوعيه طوال الوقت"؟ سأل بيتر إيڤانوڤيتش.

"نعم"، همست. "حتى آخر لحظة. وودعنا جميعًا قبل وفاته بربع ساعة، وطلب منا إبعاد ڤولوديا".

إن فكرة معاناة هذا الرجل الذي عرفه عن قرب، أولاً كصبي مرح، ثم زميل دراسة، وبعد ذلك زميلاً ناضجًا، صدمت بيتر إيڤانوڤيتش برعب، بالرغم من شعوره الحزين وإخفاء تلك المرأة. رأى مرةً أخرى الحاجب والأنف الذي يضغط في الأسفل على الشفاه، وأحس بالخوف على نفسه.

"ثلاثة أيام من المعاناة الرهيبة والموت! لماذا، فذلك كان يمكن أن يحدث لي فجأةً، في أي وقت"، فكَّر وأحس للحظة بالرعب. لكن- ودون أن يعرف كيف- رد الفعل المعتاد حدث له بأن ذلك هو ما جرى لإيڤان إيليتش، لا له، وأن ذلك ما لا يجب ولا يمكن أن يحدث له، وأن التفكير في أنه ممكن يعني الاستسلام للإحباط الذي عليه ألا يقوم به، على نحو ما أوضح ذلك ببساطة تعبير شوارتز. بعد التفكير أحس بيتر إيڤانوڤيتش باستعادة الطمأنينة، وبدأ يسأل باهتمام عن تفاصيل وفاة إيڤان إيليتش، وكأن الوفاة كانت حادثًا طبيعيًا بالنسبة لإيڤان إيليتش، ولكن ليست بالنسبة له.

بعد معرفة كل التفاصيل عن الآلام الجسدية المروعة الفعلية التي تحملها إيڤان إيليتش (تلك التفاصيل التي عرفها فحسب من آثار المعاناة التي تركتها على أعصاب براسكوڤيا فيدوروڤنا)، توصلت الأرملة- فيما

يبدو- إلى أنه من الضروري أن تدخل مجال الأعمال.

"آه، يا بيتر إيڤانوڤيتش، كم هو قاسٍ ! كم هو قاس بصورة مريعة، مريعة"، وبدأت تبكي مرةً أخرى.

تنهد بيتر إيڤانوڤيتش وانتظر حتى تتمخط. وحين انتهت من ذلك، قال "صدقيني."، وبدأت- مرةً أخرى- تتحدث وتشرح ما كان واضحًا أنه غايتها الأساسية منه- تحديدًا، سؤاله عن كيف يمكنها أن تحصل على منحة مالية من الحكومة بمناسبة موت زوجها. أوضحت أنها تريد نصيحة بيتر إيڤانوڤيتش عن معاشها، لكنه سرعان ما اكتشف أنها تعرف أدق التفاصيل عن ذلك، ربما أكثر منه شخصيًا. كانت تعرف قيمة المبلغ الذي ستحصل عليه من الحكومة بعد موت زوجها، لكنها كانت تريد أن تعرف ما إذا كان يمكنها الحصول على مبلغ أكبر.

بدأ بيتر إيڤانوڤيتش يفكر في بعض الوسائل لتحقيق ذلك، لكنه- بعد لحظة من التفكير، وإدانة بُخل الحكومة بدافع من اللياقة- قال إنه لا يظن أنه من الممكن الحصول على مبلغ أكبر. تنهدت حينئذٍ، وبدأت بوضوح في اختراع وسائل التخلص من زائرها. وإذ لاحظ ذلك، أطفأ سيجارته، نهض، وضغط على يدها، وخرج إلى حجرة الانتظار.

في حجرة الطعام، حيث تنتصب ساعة الحائط التي أحبها إيڤان إيليتش كثيرًا واشتراها من محل للتحف، قابل بيتر إيڤانوڤيتش أحد القساوسة وبعض المعارف الذين جاءوا لحضور المراسم، وتعرَّف على ابنة إيڤان إيليتش، الشابة الأنيقة. كانت ترتدي الأسود، وتبدو أنحف من مظهرها الحقيقي. كانت نظرتها حزينة، حادة وغاضبة تقريبًا،

وانحنت لبيتر إيڤانوڤيتش كما لو كانت تلومه، على نحوٍ ما. خلفها، وقف شاب ثري له نفس النظرة المستاءة، قاضي تحقيقات كان يعرفه أيضًا بيتر إيڤانوڤيتش، وهو خطيبها، كما سمع. انحنى بحزن لتحيتهما، وكان على وشك المرور إلى غرفة الميت، حين ظهر أسفل السلَّم ابن إيڤان إيليتش التلميذ، الذي كان يشبه أباه كثيرًا. كان يبدو كإيڤان إيليتش الصغير، كما يتذكر بيتر إيڤانوڤيتش عندما كانا يدرسان القانون معًا. عيناه المغرورقتان بالدموع تشبهان عيني الصبية في الثلاثة عشر أو الأربعة عشرة عامًا بلا أذهان صافية. وعندما رأى بيتر إيڤانوڤيتش نظر إليه عابسًا بحزن وخجل. أومأ بيتر إيڤانوڤيتش له، ودخل غرفة الميت. بدأت المراسم: شموع، بخور، آهات وتنهدات. وقف بيتر إيڤانوڤيتش حزينًا ناظرًا عند قدميه. لم يلق أية نظرة على الميت، ولم يستسلم لأي تأثير محبط، وكان أحد أوائل من تركوا الغرفة.

لم يكن ثمة أحد في حجرة الانتظار، لكن چيراسيم اندفع خارجًا من حجرة الميت، باحثًا بيديه القويتين بين معاطف الفراء ليبحث عن معطف بيتر إيڤانوڤيتش ويساعده في ارتدائه.

قال بيتر إيڤانوڤيتش: "حسنًا، يا صديقي چيراسيم"، كأنه يقول شيئًا ما. "إنه أمر محزن، أليس كذلك؟"

"إنها إرادة الله. ونحن جميعًا سنأتي إلى يوم كهذا"، قال چيراسيم كاشفًا عن أسنانه البيضاء- كأسنان فلاح بصحة جيدة؛ وكرجل مشغول بأعمال عاجلة، فتح الباب الأمامي بخفة، ونادي على السائق، وساعد بيتر إيڤانوڤيتش في الزلاجة، واندفع عائدًا إلى الرواق، مستعدًّا لما سيفعله بعد

ذلك.

وجد بيتر إيڤانوڤيتش رائحة الهواء النقي مبهجةً بصورة خاصة، بعد رائحة البخور، والجثمان، وحامض الكربوليك.

"إلى أين يا سيدي؟"، سأل السائق.

"لا يبدو الوقت متأخرًا للغاية الآن.. سأبحث عن فيدور ڤازيليڤيتش"

حسب ذلك، قاد العربة إلى هناك، ووجدهم ينتهون من الدور الأول، ولهذا كان من الملائم تمامًا أن يتدخل.

2

كانت حياة إيڤان إيليتش بالغة البساطة والعادية، ولهذا كانت بالغة الفظاعة.

كان عضوًا في المحكمة، ومات في الخامسة والأربعين. كان والده موظفًا خدم في عدة وظائف وأقسام في بطرسبرج، وأصبح قادرًا على الاحتفاظ بمكانته الوظيفية إلى حد أنه لا يمكن الاستغناء عنه لطول مدة عمله، وهو من الذين يشغلون مناصب قيادية لا يصلحون لها ويتقاضون رواتب خرافية تبلغ حوالى من ستة إلى عشرة آلاف روبل، يحتفظون بها حتى شيخوختهم.

هكذا كان إيليا إبيموڤيتش جولوڤين، عضو المجلس الاستشاري، الزائد عن الحاجة بمؤسسات زائدة عن الحاجة.

كان لديه ثلاثة أبناء، الثاني منهم إيڤان إيليتش. أما الأكبر فقد تبع أباه

بنفس الخطوات في قسم آخر، وقد وصل بالفعل في الخدمة إلى مرحلة تشبه الوظيفة العاطلة. والإبن الثالث كان فاشلاً. وقد دمر فرصه في كثير من المناصب، ولم يكن يعمل بقسم السكة الحديدية. ووالده وأخوته، بل وزوجاتهم، لم يكونوا كارهين تمامًا لمقابلته، بل كانوا يتحاشون تذكر أنه موجود بينهم، إلا إذا أُجبروا على ذلك. وقد تزوجت أخته من بارون جريف، وهو موظف ببطرسبرج، على طراز أبيها. لقد كان إيڤان إيليتش فينيق العائلة، كما كان يقول بعض الناس. لم يكن باردًا ورسميًّا كأخيه الأكبر، ولا جامحًا كالأصغر، بل كان وسطًا بينهما- رجل ذكي أملس، حيوي ومقبول من الجميع. درس في مدرسة القانون مع أخيه الأصغر، لكن الأخير فشل في إكمال دراسته، وطُرد عندما كان في الصف الخامس. وأنهى إيڤان إيليتش دراسته جيدًا. وحتى حين كان بمدرسة القانون، ظل كما كان لبقية حياته: الرجل الاجتماعي، الطيب المرح، بالرغم من صرامته في الالتزام تجاه ما يعتبره واجبًا عيه: وما يعتبره واجبًا هو أن يكون كما يريد هؤلاء ممن هم في السلطة.

لم يكن متملقًا، سواء عندما كان صبيًّا أو رجلاً، لكنه- منذ بدايات شبابه- كان مشدودًا، بطبيعته، إلى ذوي المكانة العالية كفراشة يجتذبها الضوء، يستوعب طرائقهم ووجهات نظرهم في الحياة، وينشئ علاقات صداقة بهم. وقد مر به كل حماس الطفولة والشباب دون أن يترك أثرًا ذا بال عليه؛ فقد استسلم للملذات الحسية والغرور ولكل ما يدور وسط الطبقات العليا لليبراليين، لكن دائما ضمن حدود تحدده صحتها له غريزته، بصورة دقيقة.

في المدرسة، ارتكب أفعالاً كانت تبدو له- فيما مضى- مشينة للغاية،

وجعلته يحتقر نفسه وهو يرتكبها؛ لكن حين رأى- فيما بعد- أن هذه الأفعال يرتكبها أناس من ذوي المناصب، بدون أن ينظروا إليها باعتبارها خطأً، لم يكن قادرًا تمامًا على اعتبارهم على صواب، بل أن ينساهم كُليةً، أو لا يزعج نفسه بتذكرهم.

وبتخرجه من مدرسة القانون، وتأهله للدرجة العاشرة في الخدمة المدنية، وإذ تسلم الأموال من والده لشراء ما يلزمه، طلب إيڤان إيليتش لنفسه ملابس من "شارمر"، الترزي العصري، معلقًا ميدالية منقوشًا عليها باللاتينية "توقع النهاية" في سلسلة ساعته، ودَّع أستاذه والأمير الراعي لمدرسته، وتناول عشاء الوداع مع أصدقائه في مطعم "دونون" من مطاعم الدرجة الأولى، حاملاً حقيبته الأنيقة وملابسه الكتان، وأدوات الحلاقة، وبقية أدوات الحمام، ومعطف السفر؛ وكلهم تم شراؤهم من أحسن المحال، وانطلق إلى إحدى المقاطعات حيث نفوذ أبيه، فالتحق بمكتب الحاكم كموظف للخدمات الخاصة.

في هذه المقاطعة، رتب إيڤان إيليتش لمكانته بصورة سلسلة ومعقولة، كما سبق أن فعل في مدرسة القانون. أنجز عمله الرسمي، وصنع حياته المهنية، وفي نفس الوقت يسلي نفسه بصورة مبتهجة ومحتشمة. ومن حين لآخر، كان يقوم بزيارات رسمية إلى أحياء البلدة، حيث كان يتصرف بكبرياء سواء بالنسبة لرؤسائه أو لمرؤسيه، وينجز المهامه الموكلة إليه، خصوصًا ذات الصلة بالطوائف، بدقة وأمانة بلا شبهة، فلا يشعر إزاء ذلك سوى بالفخر.

وفي الأعمال الرسمية، وبالرغم من شبابه ونزوعه إلى البهجة العابثة،

كان متحفظًا بشدة، حريصًا على الدقة، وأحيانا حادًّا؛ لكنه- في المجتمع- كان في الغالب مازحًا، لَمَّاحًا، ودائمًا طيب القلب، وتصرفاته سليمة، وولدًا طيبًا، كما اعتاد أن يقول عنه الحاكم وزوجته- اللذان اعتبراه أحد أفراد العائلة.

وفي المقاطعة، كان على علاقة مع سيدة قمت بعروض للصداقة مع محامي الشاب، وكانت هناك أيضًا صانعة قبعات؛ وثمة حفلات صاخبة مع المعاون الذي كان يزور المقاطعة، وبعد العشاء زيارات للشوارع البعيدة سيئة السمعة؛ وأيضًا كانت هنالك بعض الانتقادات لرئيسه بل حتى لزوجته، لكنها انتقادات بعبارات لبقة لا يمكن أن تلتصق بذوي المكانة الرفيعة. كل ذلك كان يتم تحت المقولة الفرنسية "يجب أن نغفر للشباب طيشهم". وقد تم كل ذلك بأيدٍ نظيفة، وثياب جديدة، وعبارات فرنسية، وقبل كل شيء وسط أناس الطبقة العليا بالمجتمع، وبالتالي بموافقتهم.

هكذا قضى إيڤان إيليتش خمس سنوات في هذه الخدمة، ثم حدث تغيير في حياته الوظيفية. فقد تم افتتاح مؤسسات قضائية جديدة ومجددة، كانت بحاجة إلى موظفين جدد. وكان إيڤان إيليتش مثل هذا الموظف الجديد. فقد تقدم بطلب لوظيفة قاضي تحقيق، وقُبل طلبه بالرغم من أن العمل كان بمقاطعة أخرى، وكان عليه أن يقطع علاقاته التي كونها، ويقيم علاقات جديدة. تجمَّع أصدقاؤه ليودعوه؛ والتقطوا مجموعة من الصور التذكارية قُدمت له في علبة سجائر فضية، وانطلق إلى عمله الجديد.

وكقاض للتحقيقات، كان إيڤان إيليتش كما ينبغي له أن يكون تمامًا، رجلاً محتشمًا، يفرض الاحترام العام، ويستطيع الفصل بين واجباته الرسمية وحياته الشخصية، مثلما حين يعكف على مهمة خاصة كموظف رسمي. وقد أصحبت مهامه- كقاض للتحقيقات- أكثر إمتاعًا وجاذبية بكثير عما ذي قبل. ففي وظيفته السابقة، كان يسعده أن يرتدي زيًّا رسميًّا صنعه "شارمر"، ويمر خلال زحام من مقدمي الطلبات والموظفين الذين ينتظرون بهيبة مقابلة مع المحافظ، والذين يحسدونه على حركته البسيطة السريعة التي يتجه بها مباشرةً إلى حجرة رئيسه الخاصة ليتناول كوبًا من الشاي أو سيجارة معه. لكن لم يكن ثمة أناس كثيرون آنذاك يعتمدون عليه- فقط موظيف البوليس وأعضاء الطوائف عندما يذهب إلى مهمة خاصة- وكان يحب أن يعاملهم بأدب، كرفاق تقريبًا، كأنه يسمح لهم بأن يستشعروا أنه- هو مَن يمتلك القوة ليسحقهم- إنما كان يعاملهم بهذه الطريقة البسيطة والودية. كان ثمة القليل من مثل هؤلاء، آنذاك. أما الآن، وكقاض للتحقيقات، فقد كان إيڤان إيليتش يحس أن كل الناس بلا استثناء- حتى المهمين والمغرورين- كانوا في متناول سطوته، ولم يكن عليه سوى أن يكتب بضع كلمات في ورقةٍ ما تحت عنوان معين، ليمثُل أمامه هذا الشخص المهم أو ذاك المغرور كمتهم أو شاهد، وإن لم يقرر أن يسمح له بالجلوس، فسيكون عليه أن يظل واقفًا أمامه ويجيب على أسئلته. ولم يُسئ إيڤان إيليتش في استخدام سلطته؛ بل على العكس كان يحاول التخفيف من حدتها، لكن الوعي بها وإمكانية تخفيف تأثيرها، أمداه بالمتعة والجاذبية الرئيسية لمكتبه. ففي عمله، وخاصةً في تحقيقاته، سرعان ما اكتسب طريقة في تنحية كل الاعتبارات

التي لا صلة لها بالجانب القانوني للقضية، وتحويل القضايا الأكثر تعقيدًا إلى مجرد شكل، ليتم عرضها على الورق في حدودها الخارجية فحسب، مع مع الابتعاد عن رأيه الشخصي في الموضوع، فيما ـ فوق كل ذلك ـ يلتزم بكل الصياغات الشكلية المقررة. كان العمل جديدًا، وكان إيڤان إيليتش من أول مَن طبق نظام القانون الجديد لعام 1846.

بتوليه العمل الجديد كقاض للتحقيقات في مدينة جديدة، اكتسب معارف وعلاقات جديدة، ووضع لنفسه أسسا جديدة وانتحل نبرةً مختلفة نوعًا ما. واتخذ موقف التحفظ الرفيع ـ إلى حدٍّ ما ـ تجاه السلطات المحلية، لكنه انتقى أفضل دائرة من كبار الحقوقيين وأثرياء الطبقة العليا ممن يعيشون في المدينة، وتبنى لهجة الاستياء الطفيف من الحكومة، للشخص الليبرالي، والمواطنة المستنيرة. وفي نفس الوقت، ودون أن يتخلى عن أناقته، توقف عن حلاقة ذقنه، وسمح للحيته بأن تنمو كما يحلو لها.

استقر إيڤان إيليتش بسرور بالغ في مدينته الجديدة. وكان المجتمع هناك ـ الذي يميل إلى معارضة الحاكم ـ ودودًا، وكان راتبه أكبر، وبدأ لعب "الڤينت"* ووجد أنها قد أضافت الكثير من البهجة للحياة، لأنه كانت لديه القدرة على استيعاب الورق، واللعب بمزاج رائق، والحساب بدهاء وسرعة، ولذلك كان دائمًا الرابح.

بعد إقامته في المدينة لمدة عامين، التقى بزوجة المستقبل، براسكوڤيا فيدوروڤنا ميخيل، التي كانت البنت الأكثر جاذبية وذكاء وألمعية في

---

* شكل من أشكال "البريدج".

مجموعة الأصدقاء التي اختارها، وكنوع من التسلية والاسترخاء من عمله كقاض للتحقيقات، أنشأ إيڤان إيليتش معها علاقة خفيفة ومرحة.

حينما كان موظفًا في الخدمة الخاصة اعتاد على الرقص، لكن كقاض للتحقيقات الآن كان يفعل ذلك بصورة استثنائية. ولو فعل ذلك الآن، فإنه يفعله كأنما ليُظهر أنه رغم أنه يخدم في نظام معدل للأشياء، وأنه قد بلغ الدرجة الخامسة في وظيفته، إلا أنه عندما يحين الرقص فإنه يفعل ذلك أفضل من غالبية الآخرين.

وهكذا، ففي نهاية إحدى الأمسيات، كان أحيانًا ما يراقص براسكوڤيا فيدوروڤنا، وخلال هذه الرقصات- بصورة أساسية- سَحَرها. فقد وقعت في غرامه. في البدية لم يكن لدى إيڤان إيليتش أية نية للزواج، ولكن عندما أحبته الفتاة قال لنفسه: "حقًّا، ولم لا أتزوج؟"

كانت براسكوڤيا فيدوروڤنا تنحدر من عائلة محترمة، ومظهرها ليس سيئًا، ولديها بعض الممتلكات. ولابد أن إيڤان إيليتش قد تطلع إلى زواج أكثر امتيازًا، لكن ذلك كان جيدًا أيضًا. كان لديه راتبه، وهي- كما يأمل- سيكون لديها دخل مساو. كانت لها اتصالات جيدة، وكانت شابة عذبة وجميلة وعلى درجة عالية من التربية. والقول بأن إيڤان إيليتش قد تزوج لأنه وقع في حب براسكوڤيا فيدوروڤنا، واكتشف أنها متعاطفة مع وجهات نظره في الحياة، سيكون كخطأ القول بأنه قد تزوج لأن محيطه قد بارك هذا الزواج. لقد كان متأرجحًا بين هذين الاعتبارين: أن الزواج يعطيه اكتفاء شخصيًّا، وفي نفس الوقت كان يُعتبر العمل الصائب من قِبل أرقى معارفه.

لهذا تزوج إيڤان إيليتش.

كانت الاستعدادات للزواج وبداية الحياة الزوجية، المداعبات الزوجية، الأثاث الجديد، الأوانى الفخارية والملابس الكتان الحديثة، كل ذلك كان ممتعًا إلى أن أصبحت زوجته حاملاً ـ لهذا بدأ إيڤان إيليتش في التفكير بأن الزواج لن ينال من سمات حياته، السهلة، اللطيفة، المرحة ودائمًا المحتشمة، والتي تنال القبول من المجتمع، ويعتبرها هو أمرًا طبيعيًا، لكنه سيقوم بتحسينها مع ذلك. لكن ابتداءً من الشهور الأولى لحمل زوجته، ظهر ـ بصورة غير متوقعة ـ شيءٌ ما جديد، غير سار، ومحبِط، وغير لائق، ولا مهرب منه.

بدأت زوجته ـ بهجة القلب gaiete de coeur ـ كما كان إيڤان إيليتش يقول لنفسه، وبلا أى سبب، في إزعاج سرور وتوافق حياته. بدأت في الغيرة، بلا أي مبرر، ومتوقعةً منه أن يكرس كل اهتمامه بها، إذا بها تكتشف أخطاء في كل شيء، وقامت بمشاجرات فظة وجلفة.

في البداية، كان لدى إيڤان إيليتش الأمل في أن يهرب من سخافات تلك الحالة المحزنة من خلال نفس طريقته المحترمة السلسة والتى خدمته كثيرًا من قبل: حاول أن يتجاهل مزاج زوجته المزعج، وواصل حياته بطريقته السلسة المرحة كما اعتاد، فيدعو أصدقاءه إلى منزله للعب الورق، وحاول أيضًا الخروج إلى النادي، أو قضاء المساء مع أصدقائه. لكن ـ ذات يوم ـ بدأت زوجته توبخه بفظاظة، باستخدام ألفاظ فجة، وواصلت الإساءة إليه كل مرة لا يستطيع الوفاء فيها بطلباتها، بكل حزم وتصميم واضح على ألا يستسلم إلى أن أدرك ـ أنه بمكوثه في البيت

معها، ومع إحساسه بالملل مثلها- أنه أصبح في حالة ضيق. لقد أدرك الآن أن الزواج – على أي مستوى ببراسكوڤيا فيدوروڤنا- لا يؤدي دائمًا إلى السعادة والراحة في الحياة، بل على العكس، كان انتهاكًا غالبًا لكل من الراحة واللياقة، وكان عليه بالتالي أن يحصن نفسه ضد هذه الاعتداءات. وبدأ إيڤان إيلتش في البحث عن وسائل ليحقق ذلك. كانت واجباته الرسمية أول أمر مفروض على براسكوڤيا فيدوروڤنا، ومن خلال عمله ومسئولياته الوظيفية بدأ في الصراع مع زوجته لتأمين استقلاله.

مع ولادة طفلهما، ومحاولات إرضاعه، ومرات الفشل المختلفة في تحقيق ذلك، ومع المرض الحقيقي والوهمي للزوجة والإبن، حيث أصبح تعاطف إيڤان إيليتش مطلوبًا، وإن كان لا يفهم شيئًا عن ذلك، أصبحت الحاجة إلى تأمين وجود لنفسه خارج الحياة العائلية أمرًا أكثر ضرورية.

وفيما أصبحت زوجته أكثر اهتياجًا واضطرابًا، ونقل إيڤان إيليتش مركز الجذب في حياته إلى عمله الرسمي، لذلك بدأ في حبه له أكثر، وأصبح أكثر طموحًا من ذي قبل.

وبسرعة كبيرة، أدرك إيڤان إيليتش- خلال عام واحد من زواجه- أن الزواج، رغم أنه ربما أضاف نوعًا من الراحة لحياته، إلا أنه- في الواقع- كان أمرًا بالغ الصعوبة والتعقيد، وإزاءه لابد للمرء- حتى يقوم بواجبه، أي حتى يعيش حياةً محترمة يوافق عليها المجتمع- أن يتخذ موقفًا محددًا تجاه واجباته الرسمية.

وقد اتخذ إيڤان إيليتش هذا الموقف تجاه حياته الزوجية. فلم يكن يتطلب منها سوى وسائل الراحة تلك ـ العشاء في المنزل، ربة منزل، وسرير ـ وهو ما يمكن أن تمنحها له، وقبل كل شيء لياقة المظهر الخارجي المطلوب من الرأى العام. أما الباقي، فقد كان يبحث عن السرور المرح واللياقة، ويكون ممتنًّا كثيرًا عندما يجدهما، لكن إذا ما صادفه النفور والتجاهل، فسرعان ما يتراجع ويتقوقع داخل واجباته الوظيفية المنعزلة والمسيجة، حيث كان يلقى الارتياح.

وقد تم تقدير إيڤان إيليتش كموظف جيد، وبعد ثلاث سنوات عُين مساعدًا للنائب العام. وقد أصبحت وظيفته أكثر جاذبية مع التزاماته الجديدة، وأهميتها، وإمكانية اتهام وحبس أي شخص يختاره، والشهرة التي تناها خطاباته، ونجاحه في كل هذه الأعمال.

أنجب المزيد من الأطفال.وأصبحت زوجته أكثر فأكثر نفورًا وسلوكها أكثر سوءًا، لكن الموقف الذي تبناه إيڤان إيليتش تجاه حياته المنزلية جعله أكثر مناعة إزاء تذمرها.

وبعد خدمة سبع سنوات في تلك المدينة، تم نقله للعمل في مقاطعة أخرى كنائب عام. انتقلوا، لكن كان ثمة نقص في المال، ولم تحب زوجته المكان الذي انتقلوا إليه. فبالرغم من أن الراتب كان أعلى، إلا أن تكاليف الحياة كانت أكبر، فضلاً عن أن طفلين من العائلة توفيا، مما جعل حياته الأسرية أكثر تعاسة.

كانت براسكوڤيا فيدوروڤنا تلقي باللوم على زوجها في كل المتاعب التي تواجهها في بيتهما الجديد. وغالبية الأحاديث التي كانت تدور بين

الـزوج والزوجـة، وخاصـة عـن تعلـيم الأطفـال، كانـت تقودهمـا إلى موضوعات تستدعي الخلافات القديمة، التي كانت قابلة للاشتعال مرةً جديدة في أية لحظة. ولم يتبق سوى تلك الأوقات القليلة النادرة للغرام، التي كانت تواتيهما بين الحين والحين، لكنها لا تدوم طويلاً. كانت جُزرًا صغيرة يرسوان عليها للحظة، لينطلقا ـ بعد ذلك، من جديد ـ في الإبحار إلى محيطات العداوة المستترة التي تتبدى في تباعد كل منهما عن الآخر.

وربما كان هذا التباعد مُحزنًا لإيڤان إيليتش، الذي كان يؤمن بأنه أمر لا يجب أن يكون، لكنه الآن أصبح ينظر إلى هذا الوضع على أنه عادي، بل جعله هدفًا للحياة العائلية. كان هدفه أن يحرر نفسه أكثر فأكثر من تلك التعاسات، ويمنحها مظهرًا خارجيًّا من المسالمة واللياقة. وقد حقق ذلك بقضاء أقل وقت ممكن مع عائلته، وعندما كان يُضطر إلى البقاء في البيت، كان يحاول أن يؤمن وضعه بوجود غرباء. وعلى أية حال، فقد كان الشيء الأساسي هو واجباته الوظيفية. والاهتمام الكلي لحياته مركز الآن على العالم الوظيفي، وهو ما استغرقه. فإدراك سلطته، وقدرته على تحطيم أي شخص يريد تحطيمه، وأهمية، بل حتى المهابة الخارجية لدخوله إلى قاعة المحكمة، أو المقابلات مع مرؤوسيه، ونجاحه مع رؤسائه ومرؤوسيه، وقبل كل ذلك قدرته الرفيعة على تناول القضايا، والتي كان على وعي تام بها.. كل ذلك منحه السعادة وملأ حياته، بالإضافة إلى الدردشة مع الزملاء، وحفلات العشاء، ولعب البريدج. لهذا، تواصلت ـ على العموم ـ حياة إيڤان إيليتش في الانسياب كما كان يتمنى.. بسعادة وبطريقة لائقة.

هكذا، تواصلت الحياة لسبع سنوات أُخرى. أتمت ابنته الكبرى ستة

عـشر عامًـا، وتـوفي طفـل آخـر، وتبقـى ولـد واحـد تلميـذًا وموضـوعًا للخـلاف. فقـد أراد إيڤـان إيليـتش أن يلحقـه بمدرسـة القـانون، لكـن براسكوڤيا فيدوروڤنا- لإغاظته- ألحقته بالمدرسة العليا. أما الإبنة، فتلقت تعليمها في المنزل، وأصبحت على ما يرام: ولم يتعلم الولد بصورة رديئة هو الآخر.

3

هكذا مر على إيڤان إيليتش سبعة عشر عامًا من الزواج. كان قد أصبح المدعى العام بعد انتظار طويل، وكان قد رفض تنقلات عديدة في انتظار منصب أكثر احترامًا، حين وقع حادث مزعج ومفاجئ أزعج المجرى الهادئ لحياته. كان مرشحًا لتولي رئاسة المحكمة في مدينة الجامعة، لكن "هاب" جاء في الصدارة- على نحوٍ ما- وحصل على المنصب بدلاً منه. اهتاج إيڤان إيليتش، وألقى باللوم على "هاب"، وتشاجر معه ومع رؤسائه المباشرين.. الذين أصبحوا أكثر برودةً تجاهه، وتجاهلوه في مناصب أخرى تالية.

كان ذلك في عام 1880، أصعب الأعوام في حياة إيڤان إيليتش. آنذاك، أصبح من الواضح- من ناحية- أن راتبه لم يعد يكفيهم للعيش، ومن الناحية الأخرى، أصبح منسيًّا، ليس ذلك فحسب، بل أن يعتبر

الآخرون أن ما يظنه أكبر وأعظم ظُلم قاس تعرض له هو أمر عادي تمامًا. بل إن والده حتى لم يعتبر أن من واجبه مساعدته. وشعر إيڤان إيليتش بالتجاهل من الجميع، واعتبروا راتبه ذي الـ3.500 روبل راتبًا معقولاً تمامًا، بل وربما ثروة. هو وحده الذي أدرك أن وضعه بعيد عن أن يكون عاديًّا، مع إدراك ما تعرض له من مظالم، ومع تذمر زوجته الدائم، وديونه التي تراكمت بفعل معيشته بما يتجاوز إمكانياته.

ولتوفير بعض المال ذلك الصيف، حصل على أجازة وذهب مع زوجته ليعيشا في الريف في منزل أخيها.

في الريف، بدون عمل، أحس بالملل لأول مرة في حياته، ليس فقط الملل ولكن الاكتئاب غير المحتمل، وقرر أنه من المستحيل أن يستمر في الحياة هكذا، وأن من الضروري اتخاذ إجراءات حاسمة.

بعد ليلة قضاها جيئةً وذهابًا- بلا نوم- في الشرفة، قرر أن يذهب إلى بطرسبرج ويستحث نفسه، ليعاقب هؤلاء الذين فشلوا في تقديره، وأن ينتقل للعمل في وزارة أخرى.

في اليوم التالي، وبالرغم من اعتراضات زوجته وأخيها، ذهب إلى بطرسبرج بهدف وحيد هو الحصول على منصب براتب 5000 روبل في العام. لم يعد مُعولاً على قسم بعينه، أو اتجاه معين، أو أي نشاط محدد. فكل ما يريده الآن هو التعيين في منصب آخر براتب 5000 روبل، سواء في الإدارة، أو البنوك، أي وزارة أو بنك أو- مع وجود شبكة السكك الحديدية- في أحد معاهد الإمبراطورة ماريا، أو حتى في الجمارك.. لكن ينبغي أن يكون معه راتب خمسة آلاف روبل، وأن يكون

في وزارة مختلفة عن تلك التي فشلوا فيها في تقديره التقدير المناسب.

وقد تُوج مسعى إيڤان إيليتش بنجاح هائل وغير متوقع. ففي "كيريسك"، دخل أحد معارفه، ف. إ. إلين، عربة الدرجة الأولى، وجلس بجوار إيڤان إيليتش، وأخبره بشأن التلغراف الذي تسلمه للتو من محافظ "كيرسك"، ويعلن فيه أن تغييرًا ما على وشك الحدوث في الوزارة: سيُستبدل إيڤان سيمونوڤيتش ببيتر إيڤانوڤيتش.

وكان للتغيير المفترض- بعيدًا عن مغزاه بالنسبة لروسيا- مغزى عظيم بالنسبة لإيڤان إيليتش، لأن تصعيد رجل جديد، بيتر بيتروڤيتش، وبالتالي صديقه زاكار إيڤانوڤيتش، كان مفيدًا للغاية بالنسبة لإيڤان إيليتش، لأن زاكار إيڤانوڤيتش كان صديقًا وزميلاً له.

في موسكو، تم تأكيد هذا الخبر، ولدى وصوله إلى بطرسبرج قابل زاكار إيڤانوڤيتش، وتلقى وعدًا قاطعًا بالتعيين في قسمه السابق في وزارة العدل.

بعد أسبوع أرسل تلغرافًا إلى زوجته: "من زاكار بدلاً من ميللر. وسيتم تعييني في عرض التقارير".

بفضل هذا التغيير في الموظفين، حصل إيڤان إيليتش- بصورة غير متوقعة- على وظيفة في وزارته السابقة، وضعته في منصب أعلى بدرجتين من زملائه السابقين، إلى جانب أنها منحته راتبًا خمسة آلاف روبل، وثلاثة آلاف وخمسمائة روبل لتغطية نفقات انتقاله. وتلاشت كل نقمته على أعدائه السابقين وعلى الإدارة كلها، وأصبح إيڤان إيليتش سعيدًا تمامًا.

عاد إلى القرية أكثر سعادة وابتهاجًا مما كان منذ أمد بعيد. ابتهجت أيضًا براسكوڤيا فيدوروڤنا وعقدت هدنة بينهما. حكى إيڤان إيليتش كيف احتُفي به من جانب الجميع في بطرسبرج، وكيف خجل هؤلاء الذين كانوا أعداءه منه، وأصبحوا يتوددون إليه، وكم كانوا يحسدونه الآن على تعيينه، وكم كان محبوبًا من الجميع في بطرسبرج.

استمعت براسكوڤيا فيدوروڤنا إلى كل ذلك؛ وبدت كمن يصدق ذلك. لم تعترض على شيء، لكنها فحسب وضعت خططًا لحياتهما في المدينة التي سينتقلان إليها. ورأى إيڤان إيليتش بسرور أن تلك الخطط كانت نفس خططه، وأنه وزوجته متفقان، وأن حياته ـ بعد تعثر ـ تستعيد سمتها الواجب والطبيعي من المرح المبهج واللياقة.

عاد إيڤان إيليتش لمدة قصيرة فحسب، فقد كان عليه أن يتولى مهام عمله الجديدة في العاشر من سبتمبر. وفضلاً عن ذلك، كان بحاجة إلى الوقت اللازم ليقيم في المكان الجديد، وينقل إليه كل متعلقاته من الريف، ويشتري ويطلب أشياء كثيرة إضافية: باختصار، أن يقوم بتلك الترتيبات التي استقر عليها، والتي كانت ـ بالتحديد، تقريبًا ـ ما انتهت إليها أيضًا براسكوڤيا فيدروڤنا.

والآن، وقد حدث كل شيء بحُسن حظ بالغ، وتوحدت غاياته هو وزوجته، وبالإضافة إلى ذلك لم يكن كل منهما يرى الآخر إلا قليلاً، فقد أصبحا على وفاق أكثر مما كانا عليه في سنوات زواجهما الأولى. فكر إيڤان إيليتش اصطحاب أسرته مع في الحال، لكن إلحاح شقيق زوجته، وزوجة شقيقها ـ اللذين أصبحا محبين وودودين معه ومع أسرته

بصورة زائدة، جعله يتراجع ويسافر وحده.

هكذا سافر، وحالة البهجة الذهنية الناتجة من نجاحه والتناغم الذي عاد بينه وبين زوجته، وكل منهما يكثف الآخر، لم تغادره.عثر على منزل لطيف، لطالما حلما به هو وزوجته. صالات استقبال فسيحة عالية، ذات طراز قديم، وحجرة مكتب مريحة وفخمة، وحجرات لزوجته وابنته، وحجرة مذاكرة لابنه.. ربما تكون قد صممت خصيصًا لهم. كان إيڤان إيليتش يشرق على الترتيبات، اختار ورق الحائط، استكمل الأثاث (مفضلاً "الأنتيكات" التي كان يعتبرها بشكل خاص comme il faut غاية المراد)، وأشرف على التنجيد. سارت الأمور وسارت وشارفت المثال الذي وضعه لنفسه: حتى حين كانت الأشياء نصف مكتملة، فإنها فاقت توقعاته.

رأى كم سيكو كل شيء- حين يكتمل- مرهفًا وجميلاً، خلوًا من الابتذال. عندما سينام، صور لنفسه كيف ستبدو قاعة الاستقبال. وبنظرة إلى قاعة الاستقبال- التي لم تكتمل بعد- كان بمقدوره أن يرى موضع المدفأة، والستارة، وحامل الرفوف، والكراسي الصغيرة المنثورة هنا وهناك، والأطباق والصحون على الحوائط، وأطقم البرونز، كما ينبغي أن تكون حين يكون كل شيء في مكانه. كان مسرورًا بفكرة مدى إعجاب زوجته وابنته بذلك، وهما اللتان شاركتاه في الذوق بهذا الخصوص. بالتأكيد، لم يكونا ليتوقعا الكثير. ولقد نجح بشكل خاص في العثور على تحف قديمة، وشرائها بثمن زهيد، لتعطي سمتًا أرستقراطيًّا بصورة خاصة للمكان كله. لكن في رسائله قلل عن عمد من كل شيء، ليكون قادرًا على مفاجأتهما. استغرقه كل ذلك، إلى حد أن اهتمامه

بالتزاماته الجديدة- رغم أنه أحب عمله الرسمي- كان أقل مما تتوقع.

بل كانت تنتابه أحيانًا لحظات من الشرود أثناء جلسات المحكمة ليفكر عما إذا كان ينبغي له وضع أفاريز الستائر مستقيمة أم منحنية. كان مهتمًّا أيضًا للغاية بكل ذلك، حتى أنه أحيانًا ما كان يقوم ببعض الأشياء بنفسه، مثل إعادة ترتيب الأثاث، وإعادة تعليق الستائر. وذات مرة، حين صعد السُّلم- ليوضح للمنجد، الذي لم يفهمه، كيف يريد ثني الستائر- قام بخطوة خاطئة فانزلق، لكن لأنه قوي ورشيق تماسك وارتطم جنبه فقط بمقبض النافذة. كانت الرضوض مؤلمة لكنها سريعًا ما زالت، وشعر آنذاك- بصورة خاصة- بأنه في حالة جيدة ومتألقة. كتب: "أشعر أنني أصغر بخمسة عشرة عامًا". واعتقد أن كل شيء سيكون جاهزًا بحلول سبتمبر، لكنه تجرجر حتى منتصف أكتوبر. لكن النتيجة كانت ساحرة، لا فقط في عينيه، بل في عينَي كل من رأى.

في الواقع، لم يكن سوى ما يُرى في منازل ذوي الإمكانيات المتواضعة، الذين يريدون أن يظهروا بمظهر الأغنياء، ولهذا فلا ينجحون إلا التشبه بالآخرين لا بأنفسهم: فهناك حرير دمشقي، وخشب أبنوس، ونباتات، وسجاد، وبرونز منطفئ ولامع- كل الأشياء التي يمتلكها أناس طبقة معينة، من أجل التشبه بأناس آخرين من تلك الطبقة. وكان منزله يشبه كثيرًا المنازل الأخرى إلى حد ألا يلحظها أحدٌ أبدًا، لكن كل شيء كان- بالنسبة له- يبدو استثنائيًّا تمامًا. وكان بالغ السعادة عندما التقى عائلته في المحطة، وأحضرهم إلى البيت المجهز حديثًا، والمضاء بكامله، حيث فتح لهم الباب خادم بربطة عنق بيضاء إلى الصالة المزينة بالنباتات،

وعندما دخلوا قاعة الاستقبال وغرفة المكتب وهو ينطقون بعبارات التعجب والسرور. قادهم إلى كل الأماكن، وسكِر بمديحهم بشراهة، وابتسم بابتهاج وسرور. عند احتساء الشاي، في ذلك المساء، سألته براسكوڤيا فيدوروڤنا- ضمن أشياء أخرى- عن سقطته، فضحك، وأوضح لهم كيف أنه طار وأرعب المنجد.

"من الجيد أنني رياضي، إلى حدٍّ ما. فلابد أن شخصًا آخر كان سيُقتل، لكني خبطتُ نفسي فحسب، هنا تمامًا؛ وهي تؤلم عندما يتم لمسها، لكنها تزول الآن- مجرد رضوض فقط".

هكذا، بدأوا يعيشون في بيتهم الجديد- الذي، وكما يحدث دائمًا، عندما يستقرون تمامًا فيه، يجدون أن ثمة احتياجًا لغرفة إضافية فحسب- ومع الدخل المتزايد، الذي كان دائمًا قليلاً، قليلاً للغاية، لكن كل شيء كان لطيفًا تمامًا.

في البداية سارت الأمور جيدًا بصورة خاصة، قبل أن يتم في النهاية ترتيب كل شيء، فيما كان هناك شيءٌ ما ما يزال بحاجة إلى تحقيق: هذا الشيء تم شراؤه، وذلك الشيء طُلب، وشيء آخر تم نقله، وشيء ما تم تعديله.

وبالرغم من وجود بعض الخلافات بين الزوجين، فقد كانا راضيين تمامًا، وكان ما يزال أمامها الكثير ليفعلاه، فسارت كل شيء بلا شجارات خطيرة. وبعد الانتهاء من كل الترتيبات، أصبحت الحياة أكثر مللاً، وبدا أن هناك شيئًا ما مُفتقدًا، لكنهما كانا آنذاك يبدءان في تكوين صداقات، وتشكيل عادات جديدة، والحياة تصبح أكثر امتلاءً.

يقضي إيڤان إيليتش الصباح في المحكمة، ويعود إلى المنزل للعشاء، وفي البداية كان- بشكل عام- في مزاج مرح، بالرغم من أنه أصبح بين الحين والحين قابلاً للاستثارة فيما يتعلق بمنزله. (فأية بقعة على مفرش المائدة، أو على التنجيد، وكل سلك مكسور من ستارة النافذة، كان يثير غضبه. فقد بذل جهدًا كبيرًا لترتيب كل ذلك إلى حد أن أدنى خلل فيه كان يزعجه). لكن على العموم، فقد اتخذت حياته مجراها كما يرى: ببساطة، وسرور، وأناقة.

يستيقظ في التاسعة صباحًا، فيتناول قهوته، ويقرأ الجريدة، ويرتدي زيَّه الرسمي، ويذهب إلى المحكمة. هناك، كان روتين العمل الذي عمل خلاله قد اتسع ليتناسب معه، وتقمصه هو بلا عائق: التماسات، استجوابات في القضاء، والقضاء نفسه، والجلسات العلنية والإدارية. في كل ذلك، كان الأهم هو أن استبعاد كل ما هو واقع وحيوي، لأنه عادةً ما يُخل بالمجرى المنتظم للأعمال الوظيفية، ولا يعتمد إلا العلاقات الرسمية مع الناس، وعلى أسس رسمية آنئذٍ.

فعلى سبيل المثال: يأتي شخصٌ ما للحصول على بعض المعلومات. فلن يكون لدى إيڤان إيليتش- باعتباره شخصًا لا يكذب في هذا الشأن- ما يفعله حياله: ولكن إذا ما كان لدى الشخص بعض الأعمال معه في نطاق قدرته الوظيفية، شيء يمكن التعبير عنه بصورة رسمية على ورقة مختومة، فسيفعل كل شيء، كل شيء بصورة إيجابية، في حدود مثل هذه العلاقات، وبذلك يحافظ على مظاهر الود في العلاقات الإنسانية، تلك التي تضع في الاعتبار مجاملات الحياة. وبمجرد أن تنتهي علاقات العمل، ينتهي كل شيء آخر. وكان إيڤان إيليتش يمتلك القدرة على

فصل حياته الشخصية عن الجانب الوظيفي ولا يخلط بينهما، إلى أقصى درجة، ومن خلال الممارسة الطويلة والكفاءة الطبيعية توصل إلى درجة أنه يسمح لنفسه أحيانًا- على طريقة العازف- بأن يترك العلاقات الإنسانية والوظيفية تختلط. يسمح لنفسه بذلك لأنه يحس تمامًا أنه يمكنه- في أي وقت يشاء- أن يستعيد طريقته الرسمية الصارمة مرةً أخرى، ويتخلى عن العلاقة الإنسانية، وكان يفعل ذلك بكل سهولة، بسرور، ودقة، بل وبطريقة فنية أيضًا. وفي الاستراحات فيما بين الجلسات، كان يدخن، يشرب الشاى، يدردش قليلاً عن السياسة، وقليلاً عن الموضوعات العامة، وقليلاً عن لعب الورق، ولكن الأكثر عن الوظائف الرسمية.

متعبًا، ولكن بمشاعر العازف- أحد عازفي الكمان الأوائل الذي لعب دوره بدقة ضمن الأوركسترا- سيعود إلى منزله، ليجد زوجته وابنته خارج المنزل يردون الزيارات، أو لديهم زائرٌ ما، وأن ابنه قد ذهب إلى المدرسة، وأدى واجبه المنزلي مع معلمه، ودرس بالتأكيد ما يتم تدريسه في مدرسته الثانوية.

كل شيء كما ينبغي. بعد العشاء، إذا لم يكن لديهم زائرون، يقرأ إيڤان إيليتش أحيانًا كتابًا عن أكثر المواضيع إثارةً للجدل في تلك الفترة، وفي المساء، يعكف على العمل، أي يقرأ أوراقًا رسمية، يقارن بين إفادات الشهود، ويرصد فقرات من القانون تنطبق عليهم. ولم يكن هذا مملاً ولا مسليًا. يصبح مملاً عندما يكون متاحًا له لعب البريدج، لكن إن لم يكن ثمة بريدج، فيكون- بكل المقاييس- أفضل من لا شيء، أو من الجلوس مع زوجته.

كانت متعة إيڤان إيليتش الرئيسية إقامة حفلات عشاء صغيرة كان يدعو إليها رجالاً ونساءً من طبقات المجتمع العليا، ولأن قاعة الاستقبال لديه تشبه جميع قاعات الاستقبال، فقد كانت حفلاته البهيجة الصغيرة تشبه جميع الحفلات الأخرى المشابهة.

وأحيانًا ما كانوا يقومون بالرقص. وكان إيڤان إيليتش يستمتع به ويمضي كل شيء على ما يرام، إلا إن أفضى إلى شجار عنيف مع زوجته حول الفطائر والحلوى. وتكون براسكوڤيا فيدوروڤنا قد وضعت بترتيباتها الخاصة، لكن إيڤان إيليتش يُصر على شراء كل شيء من حلواني باهظ الأسعار، ويطلب أيضًا الكثير من الفطائر، وتنشب المشاجرة لأن بعض هذه الفطائر قد تبقت، وأتت فاتورة الحلواني لتصل إلى خمسة وأربعين روبلاً. كانت مشاجرة كبيرة وبغيضة. وصفته براسكوڤيا فيدوروڤنا بأنه "أحمق ومعتوه"، وتشبث برأسه وقام بتلميحات غاضبة إلى الطلاق.

لكن الرقص في حد ذاته كان ممتعًا. فأفضل الناس كانوا متواجدين، ورقص إيڤان إيليتش مع الأميرة تروفونوڤا، إحدى شقيقات المؤسس المرموق لجمعية "فلتحمل عني عبئي".

كانت المتع المرتبطة بعمله هي متع الطموح؛ أما المتع الاجتماعية فكانت متع الغرور؛ لكن المتعة الأكبر لإيڤان إيليتش فكانت تكمن في لعب البريدج. كان يعترف بأن أيًا ما تكون الأزمة التي تقع في حياته، فإن المتعة التي كانت تومض كشعاع ضوء فوق كل شيء آخر هي أن يجلس ليلعب البريدج مع لاعبين متميزين، وليسوا صاخبين، وبالطبع

أربعة لاعبين (فاللعب مع خمسة لاعبين يجعل من الصعب التميز، رغم أن المرء يتظاهر بعدم الاكتراث)، أن يلعب مباراة جادة وذكية (عندما تسمح الأوراق بذلك)، ثم يتناول عشاءه ويحتسي كأس نبيذ. وبعد مباراة بريدج، وخاصة لو كسب قليلاً (فالمكسب الكبير مزعج)، كان إيڤان إيليتش يذهب إلى فراشه في مزاج مرح بصورة خاصة.

هكذا عاشا. وكوّنا دائرةً من المعارف من بين أفضل الناس، وقام بزيارتهم أناس ذوو أهمية وشبان. وفي وجهات النظر تجاه معارفهم، كان الزوج والزوجة والابنة على وفاق تام، واتفقوا ضمنًا وبالإجماع على أن يلقوا بعيدًا كل أنواع الصداقات والعلاقات الرثة، التي كانت- مع المبالغة في إبداء- تتدفق على قاعة الاستقبال، التي تحمل حوائطها لوحات يابانية. وسرعان ما توقفت تلك الصداقات الرثة عن التطفل، ولم يبق سوى أفضل الناس في عائلة جلوڤين.

كان الشبان يتوددون إلى ليزا، وبدأ بيتريشتشيف- وهو ابن قاضي التحقيقات ديمتري إيڤانوف بيتريشتشيف، ووريثه الوحيد- في الانتباه جيدًا إليها، لدرجة أن إيڤان إيليتش تحدث بالفعل مع براسكوڤيا فيدوروڤنا في هذا الشأن، وفكر فيما إذا كان ينبغي تنظيم حفل خاص لهما، أو بعض التمثيليات الخاصة.

هكذا عاشوا، ومضى كل شيء على ما يرام، بلا تغيرات، وانسابت الحياة بهيجة.

4

كانوا جميعًا بصحة جيدة. ولم يكن من الممكن اعتبارها حالة مرضية لو لم يعان إيڤان إيليتش أحيانًا من طَعم مُر في فمه، ويحس ببعض الإزعاج في جنبه الأيسر.

لكن هذه الإزعاج تزايد، ورغم أنه لم يكن مؤلمًا بالتحديد، إلا أنه تحول إلى إحساس بالضغط على جانبه مصحوبًا بسوء المزاج. وأصبحت قابليته للاستثارة أسوأ، وبدأ في إفساد حياته السهلة، اللطيفة، اللائقة التي تأسست في عائلة جولوڤين. أصبحت المشاجرات بين الزوج والزوجة أكثر فأكثر تكرارًا، وسرعان ما تلاشت السكينة والمودة. ومن جديد، بل حتى كان من النادر المحافظة على اللياقة. وأصبحت سورات الغضب- من جديد- متكررة، ونادرة تلك الجزر الصغيرة التي تبقت لدى الزوج والزوجة ليلتقيا عليها بلا انفجار. وأصبح لدى براسكوڤيا

فيدوروفنا الآن سبب للقول بأن مزاج زوجها لا يحتمل. ومع بعض المبالغات الشخصية كانت تقول إنه لديه دائمًا مزاج مخيف، وأنه كان بحاجة إلى كل طبعها الطيب لتسايره طوال عشرين عامًا. كان صحيحًا أنه الآن هو مَن يبدأ الشجار. ودائمًا ما كانت انفجاراته المزاجية تأتي قبيل العشاء، وغالبًا بالتحديد ما إن يبدأ في تناول الحساء.

أحيانًا ما كان يلاحظ أن الطبق أو الصحن مكسور، أو أن الطعام ليس جيدًا، أو أن ابنه يضع مرفقه على المائدة، أو أن تسريحة شعر ابنته ليست كما يحب، فيلوم براسكوفيا فيدوروفنا على كل ذلك. في البداية، كانت تجفل وترد عليه بألفاظ غير مقبولة له، لكنه ذات مرة أو مرتين انفجر في غضب- في بداية العشاء- دفعها إلى إدراك أن ذلك إنما يرجع إلى متاعب جسدية نجمت عن تناوله الطعام، لذلك كانت تضبط نفسها، ولا ترد عليه؛ لكنها تسارع فحسب للانتهاء من العشاء. وكانت تعتبر ضبط النفس أمرًا محمودًا جديرًا بالثناء. وإذ انتهت إلى أن لدى زوجها مزاج مخيف، وجعل حياتها تعيسة وحزينة، فقد بدأت بالإحساس بالأسى على نفسها، وكلما أشفقت أكثر على نفسها، ازدادت أكثر كراهيتها لزوجها. وبدأت في تمني موته؛ لكنها لم تكن لتريده أن يموت، لأن راتبه سيتوقف آنئذٍ. وهو ما زاد من حنقها عليه. واعتبرت نفسها تعيسة بصورة مخيفة فقط لأن حتى موته لن ينقذها، ورغم أنها أخفت سخطها، لكن ذلك السخط المختبئ كان يزيد من غضبه أيضًا.

بعد سورة غضب كان فيها إيفان إيليتش غير عادل بصورة واضحة، وقال بعدها- على سبيل التوضيح- إنه كان غاضبًا بالتأكيد، لكن غضبه يرجع إلى أنه ليس على ما يرام، قالت إنه مريض ينبغي العناية به،

وأصرت على أن يراه طبيب مشهور.

ذهب إلى الطبيب. وسار كل شيء كما توقعه، وكما يحدث عادةً. كان هناك الانتظار العادي، وسيماء الأهمية التي اتخذها الطبيب، التي كان معتادًا عليها تمامًا (بما يشبه السيماء التي يتخذها هو نفسه في المحكمة)، والرنين والإنصات، والأسئلة التي تتطلب إجابات تمثل استخلاصات سابقة، من الواضح أنها كانت بلا أهمية، وسيماء الأهمية الذي يتضمن "إذا ما تركت نفسك بين أيدينا فسنرتب كل شيء.. فنحن نعرف بلا شك ما ينبغي فعله، ودائمًا بالطريقة نفسها التي تناسب الجميع". اتخذ الطبيب نفس السيماء تجاهه مثلما يتخذ هو نفسه السيماء إزاء متهم.

قال الطبيب كذا وكذا، مشيرا إلى وجود كذا وكذا داخل المريض، ولكن إذا لم يثبت كشف كذا وكذا ذلك، فالمفترض بالتحليل أن يثبت كذا وكذا. وإذا ما أثبت كذا وكذا، إذن... وهكذا. بالنسبة لإيڤان إيليتش كان السؤال الأهم هو: هل حالته خطرة، أم لا؟ لكن الطبيب تجاهل هذا السؤال غير المناسب. فمن وجهة نظره فهو ليس السؤال الجدير بالاعتبار، فالسؤال الحقيقي هو أن يقرر إن كانت الحالة كُلية عائمة أو التهابًا مزمنًا في الشعب التنفسية أو التهاب الزائدة الدودية.لم تكن مسألة قام الطبيب بحلها ببراعة، كما يبدو لإيڤان إيليتش، لصالح الزائدة، مع التحفظ بأن تحليل البول يعطي مؤشرات آنية وهو ما لابد أن يكون موضع اعتبار. كل ذلك كان ما ينجزه إيڤان إيليتش بنفسه ببراعة آلاف المرات في تعامله مع الرجال خلال المحاكمات. لخص الطبيب الأمر بذكاء ناظرًا من فوق نظارته بفخر بل حتى ببهجة تجاه المتهم. من تلخيص

الطبيب، استخلص إيڤان إيليتش أن الأمور سيئة، لكنها- بالنسبة للطبيب أو ربما لأي شخص آخر- فقد كانت مسألة غير مهمة، رغم أنها كانت- بالنسبة له- سيئة. وقد صدمه هذا الاستنتاج بصورة مؤلمة، مستثيرًا داخله شعورًا بالشفقة على نفسه، وبالمرارة تجاه لامبالاة الطبيب بأمر بمثل هذه الأهمية.

لم يقل شيئًا من ذلك، لكنه نهض، ووضع أجر الطبيب على الطاولة، مبديًا- وهو يتنهد- ملاحظة: "ربما كانت لنا- نحن المرضى- أسئلة غير مناسبة. لكن أخبرني، بشكل عام، هل هذه الشكوى خطيرة، أم لا؟..."

نظر إليه الطبيب بصرامة بعين واحدة، من فوق نظارته، كما لو كان يقول: "أيها السجين، إن لم تلتزم بالأسئلة التي تُطرح عليك، فسأضطر إلى طردك خارج الجلسة".

"لقد قلت لك ما أعتبره ضروريًا ومهمًا. وقد تكشف التحاليل عما هو أكثر". وانحنى الطبيب تحيةً له.

خرج إيڤان إيليتش ببطء، وجلس على زلاجته منفطر القلب، وقادها إلى المنزل. على طول طريقه إلى المنزل، كان يفكر في كلام الطبيب محاولاً ترجمة تلك العبارات العلمية الغامضة المعقدة إلى لغة سهلة، ليجد فيها إجابة على سؤاله: "هل حالتي سيئة؟ هل هي بالغة السوء؟ أم لا وجود حتى الآن لخطر كبير؟" وبدا له أن معنى ما قاله الطبيب هو أن الأمر سيء للغاية. بدا كل شيء في الطريق باعثًا على الكآبة. سائقو التاكسي، البيوت، المارة، والمحلات، كانوا يبعثون على الغم. وألمه-

هذا الألم الغامض المزعج الذي لم يتوقف للحظة واحدة- بدا أنه قد اكتسب مغزى جديدًا وخطيرًا بملاحظات الطبيب المشكوك فيها. كان إيڤان إيليتش يراقبه الآن هذا بمشاعر جديدة وقمعية.

وصل إلى المنزل، وأخبر زوجته بما حدث. كانت تستمع، لكن في منتصف حديثه دخلت الابنة مرتدية قبعتها، متأهبة للخروج مع أمها. جلست وهي مترددة لتستمع إلى هذه القصة المملة، لكنها لم تستطع تحملها طويلاً، وأيضًا لم تسمعه الأم حتى النهاية.

"حسنًا، سعيدةٌ للغاية"، قالت. "فاحرص الآن على أن تأخذ دواءك بانتظام. أعطني الروشتة، وسأرسل جيراسم إلى الصيدلية". وذهبت لتستعد للخروج.

عندما كانت بالحجرة، كان إيڤان إيليتش يتنفس بصعوبة، لكنه تنفس الصعداء عندما غادرت الحجرة.

"حسنًا"، فكر، "لعلها- في النهاية- ليست سيئةً تمامًا".

بدأ في تناول الدواء والالتزام بتعليمات الطبيب، التي اختلفت بعد نتيجة تحليل البول. لكن حدثت آنذاك تضاربات بين المؤشرات المستمدة من تحليل البول والأعراض التي ظهرت. وتبين أن ما كان يجري مختلف عما أخبره به الطبيب، وأنه إما نسي أو أخفى شيئًا ما عنه. ولا يصح- على أية حال- لومه على ذلك، وما يزال إيڤان إيليتش يطيع أوامره بصورة تامة، ونال بعض الارتياح من ذلك.

منذ زيارة إيڤان إيليتش للطبيب، أصبح شغله الشاغل هو تنفيذ

تعليمات الطبيب فيما يتعلق بالنظافة، وتناول الدواء، وملاحظة الألم، والبراز. أصبح اهتمامه الرئيسي هو توعكات وصحة الناس. وعندما تأتي سيرة المرض والموت والشفاء في حضوره، خاصةً حين يشبه المرض مرضه، يستمع بانفعال يحاول أن يخفيه، ويطرح الأسئلة، ويطابق ما سمعه على حالته.

لم يتناقص الألم، لكن إيڤان إيليتش بذل جهدًا ليجبر نفسه على الاعتقاد بأنه أفضل حالاً. واستطاع أن يفعل ذلك طالما لم يكن ثمة ما يثيره. لكن ما إن يقع أي نكد مع زوجته، أو يصادفه افتقار إلى النجاح في عمله الرسمي، أو يمسك بأوراق رديئة في البريدج، فإنه يكون في الحال أكثر حساسية تجاه مرضه. لقد تحمل من قبل مثل تلك الظروف السيئة، آملاً في إصلاح فوري للوضع، في السيطرة عليه وتحقيق النجاح، أو الفوز العظيم. أما الآن، فأي ظرف سيء يغضبه ويغرقه في اليأس. يقول لنفسه: "ها أنذا الآن، فما إن أبدأ في التحسن، ويبدأ الدواء في تحقيق مفعوله، حتى يأتي سوء الحظ، أو النكد، اللعين هذا..." وكان يستشيط غضبًا من الحظ العاثر، أو ممن كانوا يسببون له المناكدات ويقتلونه، لأنه كان يشعر أن هذا الغضب إنما يقتله، لكنه لا يستطيع كبحه. وقد يعتقد أحدهم أنه كان من الضروري بالنسبة له توضيح أن هذا السخط على الظروف والناس كان يفاقم مرضه، ويجب عليه بالتالي أن يتجاهل الأحداث النكدة. لكنه توصل إلى النتيجة العكسية تمامًا: قال إنه بحاجة إلى السلام، وكان يراقب كل ما يمكن أن يزعجه، وأصبح سريع الاستثارة لدى أدنى انتهاك له. وساءت حالته أكثر بسبب قراءته للكتب الطبية واستشارة الأطباء. وكان تقدم مرضه منتظمًا إلى حد أنه

استطاع أن يخدع نفسه بمقارنة حالته من يوم لآخر. فالاختلاف كان طفيفًا للغاية. لكنه عندما كان يستشير الأطباء كانت تبدو له أنها تزداد سوءًا، وحتى بسرعة بالغة. ومع ذلك، وبالرغم من ذلك، فقد حرص على استشارتهم دائمًا.

في ذلك الشهر، ذهب لرؤية طبيب آخر مشهور، قال له تقريبًا نفس ما قاله الطبيب الأول، لكنه طرح أسئلته بصورة مختلفة، ولم تؤد المقابلة مع هذا الطبيب الشهير إلا إلى زيادة مخاوف وشكوك إيفان إيليتش.

وشخَّص طبيب- صديق لأحد أصدقائه، وهو طبيب ممتاز- مرضه مرةً أخرى بطريقة مختلفة تمامًا عن الآخرين، وبرغم تنبؤه بالشفاء، إلا أن أسئلته وافتراضاته أذهلت إيفان إيليتش أكثر أيضًا، وزادت من مخاوفه. وشخص معالج بالطريقة المثلية* المرض بطريقة أخرى أيضًا، ووصف دواء أخذه إيفان إيليتش سرًّا لمدة أسبوع. لكنه مع نهاية الأسبوع، وحيث لم يشعر بأي تحسن وفقد الثقة في سواء في علاج طبيبه السابق أو هذا المعالج، أصبح أكثر يأسًا. وذات يوم، ذكرت سيدة من معارفه علاجًا يقوم على أيقونة عجيبة.

ضبط إيفان إيليتش نفسه وهو يستمع إليها باهتمام، ويبدأ في تصديقها أن ذلك قد حدث. نبهه هذا الحدث. "هل ضعف عقلي فعلاً إلى هذا الحد؟" سأل نفسه. "هراء! كله هراء!. ولا يجب أن أمنح فرصة للمخاوف العصبية، بل أن أختار طبيبًا آخر ألتزم بصرامة بعلاجه. هذا

* homeopathy المعالجة المثلية: معالجة الداء بإعطاء المصاب جرعات صغيرة من دواء لو أُعطي لشخص سليم لأحدث عنده أعراض المرض المعالَج؛ المحرر.

ما سأفعله. كل شيء استقر الآن. لن أفكر فيه، بل سألتزم بالعلاج بجدية حتى قدوم الصيف، وساعتها سنرى. ومن الآن فصاعدًا، لن يكون هناك مزيد من التردد!" كان هذا سهلاً في قوله، لكنه مستحيل التنفيذ.

قهره ألم جنبه، وبدا أنه يزداد سوءًا فسوءًا بلا توقف، فيما أصبح الطَّعم في فمه غريبًا أكثر فأكثر. وبدا له أن نفَسه أصبحت له رائحة مقززة، وكان واعيًا بفقدان شهيته وقوته. لن يخدع نفسه بعد الآن: فثمة شيء مفزع، جديد، وأكثر خطورة من أي شيء سابق في حياته، كان يحدث داخله، وهو وحده مَن كان يدركه. وهؤلاء المحيطون به لم يفهموا أو لن يفهموا ذلك، لكنهم كانوا يعتقدون أن كل شيء في العالم إنما يسير كالمعتاد. وهو ما عذب إيفان إيليتش أكثر من أي شيء. كان يرى أن أسرته- وخاصةً زوجته وابنته- اللتين كانتا حريصتين على القيام بزيارات مكوكية، لم تتفهما ما أي شيء يتعلق بذلك، وتتضايقان من أنه مكتئب ومتطلّب إلى هذا الحد، كما لو أنه الملوم على ذلك. وبرغم محاولاتهما لإخفاء ذلك، إلا أنه رأى أنه عقبة في طريقهما، وأن زوجته قد اتخذت طريقة محددة تجاه مرضه والتزمت بها بصرف النظر عن أي شيء كان يقوله أو يفعله. كانت طريقتها هي: "أتعرفين"، كانت تقول لصديقاتها، "لا يستطيع إيفان إيليتش فعل ما يفعله الآخرون، ويلتزم بالعلاج الموصوف له. ففي يوم يأخذ قطرات الدواء، ويلتزم بصرامة بنظامه الغذائي، ويذهب إلى الفراش في موعد جيد؛ لكنه- في اليوم التالي، إن لم أتابعه- ينسى فجأةً دواءه، ويتناول السمك- وهو ممنوع منه- ويلعب الورق حتى الواحدة صباحًا".

"آه، غير معقول، متى كان ذلك؟" يسأل إيفان إيليتش بغيظ. "إنها

مرة واحدة عند أسرة بيتر إيڤانوڤيتش".

"وبالأمس، عندما عند شيبيك".

"حسنًا، فحتى لو لم أكن متيقظًا، فإن هذا الألم يجعلني يقظًا".

"فلتكن كما أنت ولن تتحسن حالتك أبدًا بهذه الطريقة، لكنك ستجعلنا بؤساء".

وموقف براسكوڤيا فيدوروڤنا من مرض إيڤان إيليتش- وهو ما قالته للآخرين وله سويًا- أنه نتيجة خطئه، وهو إحدى المضايقات التي سببها لها. واعتقد إيڤان إيليتش أن هذا الرأي أفلت منها بالرغم عنها- لكن ذلك لم يجعله أكثر راحةً.

وفي المحاكم أيضًا، لاحظ إيڤان إيليتش، أو ظن أنه لاحظ موقفًا غريبًا تجاهه. كان يبدو له أحيانًا أن الناس تنظر إليه بفضول، كرجل قد يخلو مكانه قريبًا. ومن جديد، يبدأ أصدقاؤه بدءوا في ممازحته بطريقة ودية بخصوص روحه المعنوية، كما لو أن حالته المزرية، التي لم يُسمع بمثلها التي كان يعاني منها، والتي تنغصه بلا انتهاء وتودي به بلا حيلة منه، كانت موضوعًا لطيفًا للتندر. كان شوارتز بالذات يستثير غضبه بمزاحه، ولباقته، ومعرفته بما ينبغي، وهو ما كان يذكره بنفسه منذ عشر سنوات.

جاء الأصدقاء ليشكلوا مجموعة وجلسوا للعب الورق. وزعوا الورق، وهم يثنونه الأوراق الجديدة ليجعلوها سلسلة، وأمسك بأوراق "الديناري" في يده، ووجد أن معه سبعة. قال شريكه "لا ورقة رابحة"،

ودعمه بورقتَي "ديناري". فماذا يمكن أن يتمنى أكثر من ذلك؟ لابد أن يكون أكثر جمالاً وحيوية. فسيحققان الفوز الكبير. لكن فجأةً، أحس إيڤان إيليتش بذلك الألم المزعج، وبذلك الطعم الغريب في فمه، وبدا من السُّخف أن يبتهج- في مثل هذه الظروف- بتحقيق الفوز الكبير.

نظر إلي شريكه ميخائيل ميخائيلوڤيتش، الذي كان يدق على الطاولة بيده القوية، وبدلاً من اختطاف جميع الأوراق، دفعها بأدب وتسامح نحو إيڤان إيليتش الذي قد يستمتع بجمعها بدون أن يمد ذراعه بطولها. "هل يعتقد أنني أضعف من أن أمد يدي بطولها؟" فكَّر إيڤان إيليتش، وإذ نسي ما كان يفعله تجاوز أوراق شريكه الرابحة، مضيعًا الفوز الكبير بثلاث أوراق رابحة. وما كان أكثر سوءًا أنه رأى كم كان ميخائيل ميخائيلوڤيتش غاضبًا من ذلك، فيما لم يبد هو أي اهتمام. وكان مخيفًا إدراك سبب عدم اكتراثه.

لاحظ الجميع أنه كان يعاني، وقالوا: "يمكننا أن نتوقف لو كنت مرهقًا. استرح". هل يرقد؟ لا، إنه ليس متعبًا أبدًا، وأكمَل الدور. كان الجميع واجمين وصامتين. أحس إيڤان إيليتش أنه نشر كآبته بينهم، ولم يستطع تبديدها. تناولوا عشاءهم ورحلوا، وتركوا إيڤان إيليتش وحيدًا مع وعيه بأن حياته قد تسممت، وأنه يسمم حياة الآخرين، وأن هذا السم لم يخفت بل كان يخترق بعمق أكبر فأكبر كل كيانه.

بهذا الوعي، بالألم الجسدي فضلاً عن الذعر، كان عليه أن يذهب للنوم، ليقضي الليل غالبًا متيقظًا. في الصباح التالي، كان عليه أن ينهض من جديد، ويذهب إلى المحكمة، يتحدث، ويكتب؛ ولو لم يذهب،

فسيقضى الأربع والعشرين ساعة في البيت، وكل منها تعذيب. وكان عليه بالتالي أن يعيش هكذا وحيدًا على حافة الهاوية، بلا أحد يفهمه أو يشفق عليه.

5

هكذا مضى شهر وبعده آخر. وقبل حلول العام الجديد مباشرةً، جاء صهر إيڤان إيليتش المدينة، وأقام في منزله. كان إيڤان إيليتش في المحكمة، وبراسكوڤيا فيدوروڤنا تتسوق. عندما عاد إيڤان إيليتش إلى المنزل ودخل مكتبه، وجد صهره- المنمق، ذا البنيةالقوية- قد أفرغ حقائبه بنفسه. رفع رأسه حين سمع خطوات إيڤان إيليتش، ونظر إليه لبرهة ولم ينطق بكلمة. قالت نظرته كل شيء لإيڤان إيليتش. فتح صهره فمه لينطق بتعجُّب من المفاجأة، لكنه ضبط نفسه، وفضحته هذه الحركة.

"لقد تغيرتُ، أليس كذلك؟"

"نعم، هناك تغير".

بعد ذلك، حاول أن يعود بصهره إلى موضوع مظهره، لكن صهره لم

يقل شيئًا عن ذلك.

عادت براسكوڤيا فيدوروڤنا إلى المنزل، وخرج إليها أخوها. أغلق إيڤان إيليتش الباب على نفسه، وراح يتفحص نفسه في المرآة، في البداية وجهه الكامل، ثم من الجانب. أمسك بصورة له مع زوجته، وقارنها بصورته التي رآها في المرآة. كان التغير الذي طرأ عليه كبيرًا. ثم عرَّى ذراعيه إلى المرفقين، ونظر إليهما، وسحب كميه مرةً أخرى إلى أسفل. جلس على مسند القدم، وأصبح أكثر سوادًا من الليل.

"لا، لا، لن يحدث ذلك!" قال لنفسه، ثم قفز وذهب إلى الطاولة، التقط بعض الأوراق القانونية وبدأ في قراءتها، لكنه لم يستطع المواصلة. فتح الباب وذهب إلى غرفة الاستقبال. كان الباب الذي كان يؤدى إلى غرفة المعيشة مغلقًا. اقترب منه على أطراف أصابعه، وبدأ يستمع.

"لا، إنك تبالغ!" قالت براسكوڤيا فيدوروڤنا.

"أبالغ! ألا ترينه؟ عجيب، إنه ميت. انظري إلى عينيه- فلا حياة فيهما. لكن ماهذا الذي يحدث له؟"

"لا أحد يعرف. نيكولايڤيتش (كان ذلك طبيبًا آخر) قال شيئًا ما، لكني لا أعرفه. وسيشتيتسكي (هذا هو الأخصائي الشهير) قال العكس تمامًا..."

ابتعد إيڤان إيليتش، ودخل غرفته، تمدد وراح يتأمل. "كُلَى، كُلَى عائمة". تذكر ما أخبره به الأطباء من انفصلت وتتأرجح الآن. وبشيءٍ من الخيال حاول الإمساك بكُليته هذه والقبض عليها ودعمها. لم يتبق

سوى القليل لإنجاز ذلك، كما بدا له. "لا، سأذهب لأرى بيتر إيڤانوڤيتش مرةً أخرى (كان هو الصديق الذي كان صديقه طبيبًا). رن الجرس، وطلب العربة، واستعد للخروج.

"إلى أين ستذهب، يا جان؟" سألت زوجته بنظرة حزينة وعطوفة بصورة استثنائية.

تلك النظرة العطوفة بصورة استثنائية هي التي استثارته. تطلع إلى وجهها في حزن.

"يجب أن أذهب لأرى بيتر إيڤانوڤيتش".

ذهب ليرى بيتر إيڤانوڤيتش، وذهبا معًا ليريا صديقه، الطبيب. كان موجودًا، وتحدث معه إيڤان إيليتش طويلاً. وبمراجعة التفاصيل التشريحية والفسيولوجية لما كان يجري داخله، طبقًا لرأي الأطباء، فهم كل شيء. كان هناك شيء ما، شيء صغير، في الزائدة الدودية. وقد يأتي كل شيء على ما يرام. فقط بتنشيط أحد الأعضاء واختبار فاعلية آخر، آنئذٍ يمكن أن يحدث الامتصاص، ويصبح كل شيء على ما يرام.

عاد إلى منزله متأخرًا عن موعد العشاء، فتناول عشاءه، وتحدث معهم بمرح، لكنه لم يقو- لمدة طويلة- على حمل نفسه على الذهاب إلى حجرته والعمل.وفي النهاية، على أية حال، ذهب إلى حجرة المكتب وأنجز ما هو ضروري، لكن لم يتركه لحاله وعيه بأنه نحّى جانبًا شيئًا ما- أمرًا ما مهمًّا وحميمًا سيعود إليه حين يُنجز عمله.

بعد أن انتهى من عمله، تذكر أن هذا الأمر ا لحميم هو فكرة الزائدة

الدودية. لكنه لم يستسلم للفكرة، وذهب إلى الصالون لتناول الشاي. كان هناك كثير من الزوار، منهم قاضي التحقيق الذى كان مرغوبًا فيه كثيرًا كخطيب لابنته، وتحدثوا، وعزفوا على البيانو، وغنوا. لاحظ إيفان إيليتش- كما لاحظت براسكوفيا فيدوروفنا- أنه قضى الأمسية معهم بمرح أكثر من المعتاد، لكنه لم ينس أبدًا للحظة أنه أجل الأمر الهام الخاص بالزائدة.

في الحادية عشرة، قال لهم تصبحون على خير، ومضى إلى حجرة نومه. ومنذ مرضه، كان ينام وحيدًا في غرفة صغيرة مجاورة لغرفة مكتبه. خلع ثيابه، وأمسك برواية لـ"زولا"*، لكنه بدلاً من قراءتها استغرق في التفكير، وفي خياله تم ذلك التحسن المطلوب في حالة الزائدة. فالامتصاص يتحقق مع الإخراج وإعادة النشاط العادي. "نعم، هذا كل شيء!" قال لنفسه. "فالمرء بحاجة فحسب إلى أن يساعد الطبيعة. ذلك هو كل شيء". تذكر موعد دوائه، فنهض، تناوله، واستلقى على ظهره وهو يرقب تفاعلات الدواء الرحيمة لتخفيف ألمه. "لا أحتاج إلا لتناوله بانتظام، وأتجنب كل المؤثرات الضارة. إنني بالفعل أشعر بتحسن، بتحسن أكبر".

بدأ بلمس جنبه: لم يكن اللمس مؤلمًا. "هنا، لا أشعر بالألم حقًا. إنه تحسن كبير بالفعل". أطفأ الضوء وانقلب على جنبه.. "الزائدة في تحسن، والامتصاص يجري".

فجأةً، شعر بالألم القديم، المعتاد، المزعج، الواخز، حادًا وقويًا.

---

* هو الروائي الفرنسي الشهير إميل زولا ()، صاحب روايات

وانتابه نفس الطعم الكريه في فمه. اهتز قلبه وشعر بالدوخة. تمتم "يا إلهي! يا إلهي!. مرةً أخرى، وأخرى! ولن يتوقف أبدًا". فجأةً اتخذ الأمر شكلاً مختلفًا تمامًا. "زائدة دودية! كُلى" قال لنفسه. "إنها ليست مسألة زائدة دودية أو كُلى، بل مسألة حياة أو... موت. نعم، كان ثمة حياة، والآن تنتهي، تنتهي ولا أستطيع استيقافها. نعم، فلماذا أخدع نفسي؟ ألم يكن واضحًا للجميع ـ ما عداي ـ أنني أموت، وأنها فحسب مسألة أسابيع أو أيام.. بل يمكن أن يحدث في هذه اللحظة.

كان هناك نور وهناك الآن ظلام. كنتُ هنا، والآن ذاهبٌ إلى هناك! إلى أين؟ انتابته رعشة، وتوقف نفَسُه، ولم يحس إلا بنبضات قلبه."عندما لا أكون فماذا سيكون؟ لا شيء. ثم أين سأكون حينما لا يعود لي وجود؟ أهذا هو الموت؟ كلاً، لا أريد أن أموت!" قفز وحاول أن يشعل الشمعة، تحسسها بيديه المرتعشتين، فسقطت الشمعة والشمعدان على الأرض، وهوى على وسادته.

"ما الفائدة؟ لا فرق"، قال لنفسه وهو يحملق بعينيه المفتوحتين عن آخرهما في الظلام. "الموت. نعم، الموت. ولا أحد يعرف أو يتمنى أن يعرف الموت، ولا أحد منهم يشفق علَيْ. إنهم الآن يلعبون. (سمع من خلال الباب الصوت البعيد لأغنية والأصوات المصاحبة لها). بالنسبة لهم، كل شيء سيان، لكنهم سيموتون أيضًا! حمقى! أنا أولاً، ثم هم في وقت لاحق، لكنه سيكون سيان بالنسبة لهم. والآن، هم مرحون.. الحيوانات!"

خنقه الغضب، وكان تعيسًا بصورة أليمة، بلا احتمال. "من

المستحيل أن يُحكم على الناس بأن يعانوا هذا الرعب الأليم!"

رفع نفسه.

"لابد أن هنا خطأ ما. لابد أن أهدئ نفسي- لابد من التفكير فيه كله من البداية. وبدأ يفكر من جديد. "نعم، بداية المرض: عندما رطمتُ جنبي، لكني كنت ما أزال بحالة جيدة في نفس اليوم واليوم التالي. كان ثمة ألم طفيف، ثم ازداد أكثر. زرت الأطباء، ثم انتابني اليأس والكرب، ومزيد من الأطباء، وأصبحتُ أقرب إلى الهاوية. وهنت قوتي أكثر، وظللتُ أقترب أكثر فأكثر، والآن تدمرت، ولا ضوء في عينَي. أفكر في الزائدة الدودية- لكنه الموت! أفكر في علاج الزائدة، وكل ذلك هنا يعني الموت! أيمكن أن يكون حقًّا الموت؟"

تملكه الغضب من جديد، ولهث يلتقط أنفاسه. انحنى وبدأ يتحسس بحثًا عن الكبريت، وهو يضغط بمرفقه على المسند المجاور للسرير. كان يعترضه وآلمه، فاستشاط غضبًا منه، وضغط عليه بقوة أكبر مع ذلك، وقَلَبه. لاهثًا ويائسًا سقط على ظهره، متوقعًا أن يأتيه الموت في الحال.

في نفس الوقت كان الزائرون يغادرون، وبراسكوڤيا فيدوروڤنا تودعهم. سمعت شيئًا ما يهوي ودخلت.

"ماذا حدث؟"

"لا شيء. ارتطمت به فجأة".

خرجت وعادت بشمعة. كان مستلقيًا على ظهره يتنفس بصعوبة، كمن جرى ألف ياردة، وحدق فيها بنظرة ثابتة.

"ما هذا، يا جان؟"

"لا...ا...شيء. لقد قلبتُه". ("لماذا أتحدث عنه؟ فهي لن تفهم"، فكَّر).

وفي الحقيقة، فهي لم تفهم. التقطت المسند، وأشعلت الشمعة، وخرجت مسرعة لتودع زائرًا آخر. عنما عادت، وجدته ما يزال مستلقيًا على ظهره، يحملق لأعلى.

"ماذا يحدث؟ هل أصابك سوء؟"

"نعم"

هزت رأسها وجلست.

"هل تعرف، جان، أعتقد أننا يجب أن نطلب من ليشيتيسكي أن يأتي ويراك هنا".

هذا يعني استدعاء الأخصائي المشهور، بغض النظر عن التكاليف. ابتسم بخبث وقال "لا". بقيت لبرهة أطول، ثم قامت إليه وقبلته على جبينه.

فيما كانت تقبله كان يكرهها من أعماق روحه، ومنع نفسه بصعوبة من دفعها بعيدًا.

"ليلة سعيدة. أستحلفك بالله أن تنام".

"حسنًا".

6

رأى إيڤان إيليتش أنه يحتضر، وكان في يأس مستمر.

في أعماق قلبه، كان يعرف أنه يحتضر، لكنه فحسب لم يكن معتادًا بعد على الفكرة، لم يستطع ببساطة أن يستوعبها.

وطبقا للقياس الذي تعلمه من منطق كيسويتر Kiesewetter: "كايوس Caius إنسان، والبشر فانون، ولهذا فكايوس فان"، كان يبدو له دائمًا صحيحًا إذا ما طبقه على كايوس، لكنه بالتأكيد ليس صحيحًا إذا ما طبقه على نفسه.

فأن يكون كايوس- وهو إنسان مجرد- فانيًا لهي فكرة صائبة تمامًا، لكنه لم يكن كايوس، لم يكن إنسانًا مجردًا، بل مخلوق، ومنفصل تمامًا عن جميع الآخرين. كان لديه ڤانيا الصغيرة، مع ماما وبابا، وميتيا وڤولوديا، مع اللعب، سائق وممرضة، وبعد ذلك كاتينكا، ومع كل

مباهج ومسرات وأحزان الطفولة، والصبا والشباب. فماذا يعرف كايوس عن رائحة تلك الكرة الجلدية المخططة التي كانت مولعة بها ڤانيا؟ هل قبَّل كايوس يد أمه هكذا، وهل أصدر ثوبها الحريري الحفيف من أجله؟ هل شاغب في المدرسة عندما تكون الفطيرة سيئة؟ هل وقع كايوس في الحب هكذا؟ هل ترأس كايوس الجلسة مثلي؟ "كايوس في الحقيقة فان، وكان صوابًا بالنسبة له أن يموت؛ لكن بالنسبة لي، إيڤان إيليتش، وللصغيرة ڤانيا، فبكل أفكاري وعاطفتي، فهو أمر بالغ الاختلاف. ولا يمكن أن يكون موتي مستحقًّا. فذلك سيكون فظيعًا للغاية.

كانت تلك مشاعره.

"ولو كان لابد لي من أن أموت مثل كايوس، لكنت قد عرفت. لكان صوت داخلي قد أخبرني بذلك، لكن لم يحدث شيء من هذا القبيل داخلي، وقد أحسست- أنا وأصدقائي- أن حالتنا مختلفة تمامًا عن حالة كايوس". والآن تلك هي المسألة!" قال لنفسه. "لا يمكن. مستحيل! لكن ها هي الآن. فكيف ذلك؟ كيف للمرء أن يفهم ذلك؟"

لم يستطع أن يفهم ذلك، وحاول طرد هذه الفكرة الزائف، المريضة، الخاطئة، واستبدالها بأفكار صحيحة وصحية. لكن تلك الفكرة، وليس الفكرة وحدها بل الواقع ذاته، كانا يبدوان كأنهما يقفان في مواجهته.

وحتى يتوقف عن تلك الفكرة قام باستدعاء قائمة طويلة من الأفكار، آملاً أن يجد فيها ما يساعده. حاول الرجوع إلى تيار أفكاره

السابقة التي حجبت عنه فكرة الموت. لكن من الغريب أن نقول إن كل ما سبق أن أوصد، وأخفى ودمر وعيه بالموت، لم يعد له ذلك التأثير. ويقضي إيڤان إيليتش الآن معظم وقته في محاولة إعادة بناء ذلك المجرى القديم. قد يقول لنفسه: "سأتولى مسئولياتي من جديد- فقد اعتدتُ على العيش عليها، في نهاية المطاف" وليبعد كل الشكوك، فسيذهب إلى المحكمة ويدخل في حديث مع زملائه، ويجلس بلا اهتمام كما اعتاد، متفحصًا الزحام بنظرة عميقة، ومتكئًا بذراعيه الهزيلتين على ذراعي كرسيه المصنوع من السنديان؛ وفيما ينحني كالعادة ناحية زميل، وهو يسحب أوراقه ويقربها أكثر، يتبادل الهمسات معه، وآنئذٍ فجأةً- فيما يرفع عينيه وينصب قامته- ينطق بكلمات معينة ويفتتح الإجراءات. وفجأةً، وسط هذه الإجراءات، يبدأ الألم في نهش جنبه، بصرف النظر عن المرحلة التي بلغتها الإجراءات. ينتبه إيڤان إيليتش إليه، ويحاول إبعاد التفكير فيه، لكن بلا جدوى. فسيأتي وسيقف أمامه وينظر إليه، وربما يتحجر ويموت نور عينيه، وسيبدأ من جديد في سؤال نفسه ما إذا كان ذلك حقيقيًّا.

وسيرى أصدقاؤه ومرؤوسوه بدهشة وضيق كيف أنه- هو القاضي اللامع والذكي- يصبح مشوشًا ويرتكب الأخطاء.

وسيهز نفسه، ويحاول استعادة نفسه، ويتمكن إلى حدٍّ ما من إنهاء الجلسة، ويعود إلى منزله بالإدراك الحزين أن العاملين لم يختبئوا منه، كما كانوا يفعلون في السابق. والأسوأ من كل ذلك أن الألم استرعى انتباهه، لا من أجل أن يتخذ فعلاً معينًا، بل فقط من أجل أن يلتفت إليه، أن

ينظر إليه مباشرةً وجهًا لوجه: النظر إليه وبدون فعل أي شيء، والألم بما يفوق الوصف.

وحتى ينقذ نفسه من هذا الوضع، كان إيڤان إيليتش يتطلع إلى العزاء- ستائر عازلة جديدة- وتم العثور على ستائر عازلة جديدة وبدت لوهلة أنها ستنقذه، لكنها سرعان ما تهاوت مزقًا، أو أصبحت شفافة، كأنما يخترقها الألم، ولا شيء يستطيع حجبه.

في تلك الأيام الأخيرة كان يدخل إلى غرفة المعيشة- التي رتبها بنفسه- غرفة المعيشة تلك التي سقط فيها ومن أجلها (كم بدا ذلك سخيفًا بمرارة) ضحى بحياته- لأنه كان يعرف أن مرضه إنما نشأ من تلك السقطة. يدخل الحجرة ويرى أن شيئًا ما قد خدش الطاولة الصقيلة. ويبحث عن سبب ذلك، ويكتشف أنها الحلية البرونزية لأحد الألبومات، وقد تقوست. ويأخذ الألبوم غالي الثمن الذي رتبه بصورة جميلة، ويحس بالغضب من ابنته وأصدقائها على إهمالهم- لأن الألبوم قد تمزق هنا وهناك وانقلبت بعض الصور رأسًا على عقب. ويعيد الترتيب بعناية ويعيد الحلية إلى مكانها. ثم يضع كل هذه الأشياء في ركن آخر من الحجرة، بجوار النباتات. ويستدعي الخادم، لكن ستأتي زوجته أو ابنته لمساعدته. لن توافقاه، وستعارضه زوجته، وسيتشاجر ويغضب. لكن ذلك كان على ما يرام، فبعد ذلك لم يفكر فيه. كان غير مرئي.

لكن بعد ذلك، عندما كان يحرك شيئًا بنفسه، كانت زوجته تقول: "دع الخدم يفعلون ذلك. ستؤذي نفسك من جديد". وفجأةً سيومض خلال الستارة الحاجزة، ويراه. كان مجرد ومضة، وتمنى لو أنه تلاشى،

لكنه لا إراديًّا ينتبه إلى جنبه. "إنه هناك في موضعه، يؤلم نفس الألم!" ولا يعود قادرًا على نسيانه، لكنه يستطيع أن يراه بدقة وهو ينظر إليه من وراء الزهور. "لماذا يحدث كل هذا؟"

"إنه حقًّا كذلك! لقد فقدت حياتي فوق تلك الستارة، التي كان لابد من تركيبها حين تهب العواصف بقوة. فهل هذا معقول؟ ياله من رعب ويا له من غباء. لا يمكن أن يكون ذلك حقيقيًّا! لا يمكن، لكنه حقيقي".

يذهب إلى حجرة المكتب، يستلقي، ومن جديد يصبح وحيدًا معه: وجهًا لوجه معه. ولا يمكن فعل شيء حياله، سوى أن ينظر إليه ويقشعر جسده.

7

من المستحيل قول كيف حدث هذا، لأنه جاء خطوةً خطوة، ولم يلحظه أحد، لكن- في الشهر الثالث لمرض إيڤان إيليتش- أدركت زوجته، وابنه، وابنته، والمعارف، والأطباء، والخدم، وهو نفسه قبل كل شيء، أن كل اهتمام الآخرين به كان يكمن فيما إذا سيُخلي مكانه قريبًا، ويخلصهم- في النهاية- من الإزعاج الذي يسببه وجوده بينهم، ويتخلص هو نفسه من آلامه.

تناقص نومه أكثر فأكثر. أُعطي الأفيون، وحقن المورفين تحت الجلد، لكن ذلك لم يُرحه. والاكتئاب الممل الذي عاناه في حالة تخدير كان يمنحه في البداية بعض الراحة، لكن كأي شيء جديد فحسب، ليصبح فيما بعد مؤلمًا كالألم نفسه، أو حتى أشد.

أعدوا له طعامًا خاصًا حسب تعليمات الأطباء، لكن كل هذا

الطعام أصبح- بصورة متزايدة- بلا نكهة ومقززًا له.

حتى عملية التبرز كانت لها أيضًا ترتيبات خاصة، وكانت عملية تعذيب بالنسبة له في كل مرة- تعذيب ناتج عن عدم النظافة، وعدم اللياقة، والرائحة، ومعرفته بأن شخصًا آخر لابد أن يشترك معه.

لكن وسط أقصى سخافاته، وجد إيڤان إيليتش بعض الراحة. فچيراسيم- المساعد الشاب لرئيس الخدم، عادةً ما يأتي لنقل الأشياء إلى الخارج. كان چيراسيم فتى قرويًا، نظيفًا، ومفعمًا بالنشاط، نشأ قويًا على طعام المدينة، ودائمًا مبتهج ومشرق. ومع أول نظرة إليه، في ملابسه الروسية القروية النظيفة، انغمس في تلك المهمة المقززة التي تحرج إيڤان إيليتش.

ما إن ينهض من قاعدة التواليت أضعف من أن يرفع سرواله، كان يرتمي على أية مقعد وثير، وينظر برعب إلى فخذيه العاريين، النحيلين، وآثار العضلات واضحة عليهما بحدة.

يأتي چيراسيم بخطواته الخفيفة الواثقة، وحذائه الثقيل الذي تنبعث منه رائحة لطيفة للقطران وهواء الشتاء المنعش، مرتديًا مئزر خيش نظيف، وأكمام قميصه المطبوع مشمرة عاليًا عن ذراعيه القويتين العاريتين؛ ومتحاشيًا النظر إلى سيده المريض مراعاة لشعوره، وكابتًا لبهجة الحياة التي تومض من وجهه، يرتقي إلى قاعدة التواليت.

"چيراسيم!" ينادى إيڤان إيليتش بصوت واهن.

يأتى چيراسيم خائفًا من أن يكون ارتكب خطأً ما، فيدير بحركة

سريعة وجهه النشط، البسيط، العطوف، الذي يبدي بالكاد الإشارات الأولى الزغبية للحية.

"نعم، سيدي؟"

"سيكون هذا غير مبهج لك. سامحني. فأنا لا حيلة لي".

"آه، لِمَ يا سيدي؟" وومضت عينا جيراسيم، وابتسم عن أسنان بيضاء لامعة، "ما الذي يزعج في اضطراب صغير؟ إنها حالة مرضية لديك، يا سيدي".

وأنجزت يداه االقويتان الرشيقتان مهمتهما المعتادة، وخرج من الحجرة بخطوات خفيفة. بعد خمس دقائق عاد بنفس الخفة.

كان إيڤان إيليتش ما يزال جالسًا في نفس الوضعية على نفس الكرسي.

"چيراسيم"، قال حينما أعاد چيراسيم وضع الإناء المغسول. "من فضلك، تعال هنا، وساعدني". ذهب إليه. "ارفعني. فصعبٌ بالنسبة لي أن أنهض، وقد أرسلت ديمتري بعيدًا".

قام چيراسيم ليساعده، أمسك سيده بذراعيه القويتين بصورة رشيقة، بنفس الطريقة التي يخطو بهاـ رفعه، وسنده بيد، وباليد الأخرى رفع له سرواله، وكان سيجلسه من جديد، لكن إيڤان إيليتش طلب أن يعيده أن يذهب به إلى الكنبة.

"هو أنت. كم تفعلها بسهولة وبصورة جيدة!"

ابتسم چيراسيم مرةً أخرى واستدار ليغادر الحجرة. لكن إيڤان إيليتش استشعر الراحة في وجوده معه، فلم يرد أن يتركه يخرج.

"شيء آخر، من فضلك انقل هذا الكرسي. لا، الكرسي الآخر- تحت رجلي. فالأفضل لي أن احتفظ برجليَّ مرفوعتين".

أحضر چيراسيم الكرسي، ووضعه برفق في مكانه، ورفع رجلَي إيڤان إيليتش عليه. بدا لإيڤان إيليتش أنه شعر بالراحة أكثر عندما رفع چيراسيم رجليه.

"من الأفضل أن تكون رجلَيَّ مرفوعتين"، قال. "ضَع هذا المسند تحتهما".

فعل چيراسيم ذلك. مرةً أخرى رفع رجليه ووضعهما، ومرةً أخرى أحس إيڤان إيليتش بتحسن حين أمسك چيراسيم برجليه. وحين وضعهما، توهم إيڤان إيليتش أن حالته أصبحت أسوأ.

"چيراسيم". قال. "هل أنت مشغول الآن؟"

"كلاً، مطلقًا يا سيدي"، رد چيراسيم، الذي تعلم من أهل المدينة كيف يتحدث إلى سيد مهذب.

"ماذا تبقى أن تفعل؟"

"ماذا سأفعل؟ لقد أديت كل ما عليَّ إلا تقطيع الجذوع للغد".

"إذن ارفع لي رجلَيَّ أعلى قليلاً، هل يمكنك؟"

"يمكنني بالطبع. لمَ لا؟" ورفع چيراسيم رجلَي سيده أعلى، وفكَّر

إيڤان إيليتش بأنه- في هذه الوضعية- لم يشعر بأي ألم على الإطلاق.

"وماذا عن الجذوع؟"

"لا تشغل بالك بهذا، يا سيدي. فما يزال لديَّ المزيد من الوقت".

طلب إيڤان إيليتش من چيراسيم أن يجلس ويمسك له برجليه، وبدأ يتكلم معه. ومن الغريب القول إنه بدا له أنه أحسن بتحسن حين كان چيراسيم يرفع رجليه إلى أعلى.

فيما بعد، كان إيڤان إيليتش ينادي أحيانًا على چيراسيم، ويجعله يرفع رجليه ويضعهما على كتفيه، وكان يحب الحديث معه. كان چيراسيم يفعلها بسهولة، بترحاب، ببساطة، وبطيبة أثرت في إيڤان إيليتش. كانت القوة والصحة والحيوية لدى الآخرين تصيبه بالنكد، لكن قوة وحيوية چيراسيم لم تذله بل كانت تهدئه.

فأكثر ما كان يعذب إيڤان إيليتش هو الخداع، الكذب، اللذين كانا- لسببٍ ما- مقبولين تمامًا، أنه لم يكن يموت، بل هو مريض ببساطة، وأن كل ما يحتاجه هو أن يلزم الهدوء ويلتزم بالعلاج، وبعدها ستكون النتيجة جيدة جدًّا. على أية حال، فقد كان يعرف أن ذلك لن يؤدي إلى نتيجة، فلا يظل ثمة سوى معاناة الاحتضار والموت. وهذا الخداع هو ما كان يعذبه- فهم لا يريدون الاعتراف بكل ما يعرفون وما يعرفه، بل يريدون الكذب عليه بما يتعلق بحالته الخطيرة، ويريدون ويجبرونه على أن يشاركهم تلك الكذبة.

تلك الأكاذيب- التي تم تمثيلها عليه عشية موته وقُدِر لها أن تنحط

بهذا الفعل الرهيب، الجليل إلى مستوى زياراتهم، وستائرهم، والسمك الذي سيتناولونه في العشاء- كانت عذابًا رهيبًا لإيڤان إيليتش. ومن الغريب أنه- في مرات عديدة حين يقومون بسلوكياتهم الغريبة إزاءه- كان على وشك أن يصيح فيهم: "كفوا عن الكذب! فأنتم تعرفون وأنا أعرف أنني أموت. إذن، فعلى الأقل كفي عن الكذب!" لكن لم تكن لديه القوة ليفعل ذلك. والفعل الرهيب، الفظيع لموته- كما كان يرى- تم تقليصه ممن يحيطون به إلى مستوى واقعة عابرة، مزعجة، وتقريبًا غير لائقة (كما لو أن أحدًا ما دخل غرفة المعيشة وبث فيها رائحة كريهة)، وتم ذلك بتلك اللياقة التي كان حريصًا عليها طوال حياته. كان يرى ألا أحد يشعر به، لأن لا أحد كان يريد فهم وضعه. وحده چيراسيم هو من أدرك وضعه، وأشفق عليه.

ولذلك كان إيڤان إيليتش يشعر بالراحة إلا معه. كان يشعر بالارتياح عندما يسند له رجليه (أحيانًا طوال الليل)، ويرفض الذهاب إلى الفراش، قائلاً: "لا تقلق، إيڤان إيليتش. فسأنام بما يكفي فيما بعد"، أو حينما أصبح فجأةً يتعامل معه بلا تكلف، ويصيح: "لو لم تكن مريضًا لاختلف الأمر، وبما أنه كذلك، فلماذا أتذمر من متاعب صغيرة؟" كان چيراسيم الوحيد الذي لا يكذب؛ فكل شيء كان يوضح أنه وحده مَن يفهم حقيقة الحالة، ولم يفكر أنه من الضروري أن يخفي ذلك، لكنه كان ببساطة يحس بالأسَى على سيده الهزيل والضعيف. وذات مرة، عندما كان إيڤان إيليتش يبعده، كان يقول حتى بصورة مباشرة: "كلنا سنموت، فلماذا أتذمر من متاعب صغيرة؟"- ليعبر عن حقيقة أن عمله ليس عبئًا، لأنه إنما كان يفعله لرجل يموت، وكان يتمنى

أن يفعل ذلك أحدٌ ما له عندما يئون أوانه.

وبعيدًا عن هذا الكذب، أو بسببه، فأكثر ما كان يعذب إيڤان إيليتش ألا أحد يشفق عليه كما كان يريد. وفي لحظات معينة، بعد معاناة مطولة، لم يكن يتمنى (بالرغم من خجله من الاعتراف بذلك) إلا أن يشفق عليه أحد مثلما يشفق على طفل مريض. كان يهفو إلى الإشفاق عليه وإراحته. كان يعرف أنه موظف مهم، وأن له لحية تحولت إلى اللون الرمادي، ولهذا فما كان يهفو إليه ليس مستحيلاً، لكنه مع ذلك كان يهفو إليه. وكان في موقف چيراسيم منه شيءٌ ما قريب مما كان يتمناه، ولهذا كان هذا الموقف يريحه. كان إيڤان إيليتش يريد أن ينتحب، أن يشفق عليه أحد ويبكي عليه، وآنئذٍ يأتي زميله "شيبيك"، وبدلاً من البكاء والإشفاق عليه، سيتخذ إيڤان إيليتش سيماء جادة، حادة، وعميقة، وبحكم العادة سيعرب عن رأيه في قرار محكمة النقض، وسيتمسك بعناد بهذا الرأي. هذا الزيف المحيط به وبداخله كان له أكبر الأثر في تسميم أيامه الأخيرة.

8

جاء الصباح. عرف أنه الصباح لأن چيراسيم ذهب، وجاء الخادم بيتر ليطفئ الشموع، ويسحب إحدى الستائر، وبدأ بهدوء في التنظيف. وسواء كان الصباح أم المساء، الجمعة أو الأحد، فلم يكن ثمة فرق، فكل شيء يشبه الآخر: الألم الممض، المعذب، الكامل، الذي لا يتوقف للحظة، الوعي بالحياة التي تنسحب لا محالة لكنها لم تنطفئ بعد، واقتراب ذلك المـــوت الكريه والرهيب أبدًا، والذي يمثل الواقع الوحيد، ودائمًا نفس الزيف. فما أهمية الأيام، الأسابيع، الساعات، في مثل هذه الحالة؟

"هل تريد تناول الشاي، سيدي؟"

"إنه يريد انتظام الأشياء، ويتمنى الأشراف ليتناول معهم شاي الصباح"، فكر إيڤان إيليتش، ولم يقل سوى: "لا".

"ألا تريد أن تنتقل إلى الكنبة، سيدي؟"

"إنـه يريـد تنظيـف الحجـرة، وأنـا أقـف في طريقـه. أنـا القـذارة والفوضى"، فكر، ولم سوى:

"لا. اتركني وحدي".

أكمل الرجل على عجل. مد إيڤان إيليتش يده. جاء بيتر، متأهبًا للمساعدة.

"ماذا تريد، سيدي؟"

"ساعتي".

التقط بيتر الساعة التي كانت في متناول يده، وناولها لسيده.

"الثامنة والنصف، هل الجميع مستيقظ؟"

"لا، سـيدي، ماعـدا ڤلاديمـير إيڤـانوڤيتش (الابـن) الـذي ذهـب إلى المدرسة. أمرتني براسكوڤيا فيدوروڤنا بأن أوقظها إذا طلبتها. فهل أفعل ذلك، سيدي".

"لا، لا داع لذلك، ربما الأفضل أن أحتسي بعض الشاي"، فكر، وأضاف بصوت عالٍ: "نعم، أحضر لي بعض الشاي".

ذهب بيتر إلى الباب، لكن إيڤان إيليتش خاف من أن يُترك وحيدًا. "كيف يمكنني إبقاؤه هنا؟ آه، نعم، دوائي". "بيتر، أعطني الدواء". "لَمَ لا؟ فربما ما يزال بمقدوره أن يؤثر قليلاً". ملأ ملعقة وابتلعه. "كلا، لن يفيد. كلها تصرفات صبيانية، كلها خداع"، قرر ذلك عندما أصبح مدركًا للطعم المعتاد، المَرضي، اليائس. "كلا، لا يمكنني تصديقه بعد

ذلك. لكن الألم، لماذا هذا الألم؟ فلو يتوقف فحسب لمجرد دقيقة!" وتأوه. استدار بيتر ناحيته. "كل شيء على ما يرام. اذهب واحضر لي بعض الشاي".

خرج بيتر. وإذ تُرك وحيدًا، تأوه إيڤان إيليتش لا من الألم بقدر ما هو من التفكير المخيف، والعذاب النفسي. دائمًا وأبدًا نفس الشيء، دائمًا تلك النهارات والليالي بلا نهاية. فلو يأتي أسرع فحسب! لو يأتي ما سيأتي أسرع فحسب! الموت، الظلام؟... لا، لا! أى شيء غير الموت!

عندما عاد بيتر ومعه الشاى على الصينية، حدق فيه إيڤان إيليتش لبرهة في جمود، بلا إدراك له وماذا كان. تشوش بيتر من تلك النظرة وأعادت حيرته إيڤان إيليتش لنفسه.

"آه، الشاي! حسنًا، ضعه هنا. فقط ساعدني لأغتسل وأرتدي قميصًا نظيفًا".

وبدأ إيڤان إيليتش في الاغتسال. مع وقفات للراحة، غسل يديه ثم وجهه، نظف أسنانه، مشّط شَعره، ونظر في المرأة. هالَه ما رأى، خاصةً الطريقة المتعرجة التي علق بها شعره بجبينه الشاحب.

أثناء تغيير قميصه، عرف أنه سيرتعب أكثر من رؤية جسده، لذلك تحاشى النظر إليه. في النهاية أصبح جاهزًا. ارتدى "روب دي شومبر" ولف نفسه بوشاح صوفي، وجلس في كرسيه ليشرب الشاي. للحظةٍ، شعر بانتعاش، لكن بمجرد أن بدأ في شرب الشاي أدرك من جديد نفس المذاق، وعاوده الألم. انتهى من الشاي بعناء، ثم استلقى مادًّا رجليه، وصرف بيتر.

كالعـادة نفـس الـشيء. الآن شـعاع مـن الأمـل يـومض، ثم بحـر مـن اليـأس يمـوج، ودائمًـا الألم؛ دائمـا الألم، دائمًـا الإحبـاط، ودائمـا نفـس الشيء. وعندما يكون وحيدًا تنتابه رغبة مخيفة وملحة في أن ينادي أحدًا مـا، لكنـه يـدرك مسبقًا أن بوجـود الآخـرين يـصبح الأمـر أسـوأ. "جرعـة أخرى من المورفين- لأفقد الوعي. سأخبره، الطبيب، بأنه لابد أن يفكر في شيء آخر. فمن المستحيل، المستحيل، أن استمر كذلك".

تمر ساعة بعد أخرى على هذا النحو. لكن جرس الباب الآن يرن. ربما يكون الطبيب؟ ها هو. يأتي نشيطًا، ممتلئ الجسم، مبتهجًا، بتلك النظرة على وجهه التي يبدو أنها تقول: "الآن أنت مرعوبٌ من شيءٍ ما، لكننا سنضبط كل ذلك فورًا! يعرف الطبيب أن هذا التعبير ليس له مكان هنـا، لكنـه يتخـذه دائمًـا بالنـسبة للجميـع، ولا يـستطيع التخلـي عنـه- كرجل يرتدي معطفًا في الصباح ليقوم بمجموعة من الزيارات.

فرك الطبيب يديه بقوة وبتأكيد.

"برر! يا له من برد! يا له من صقيع؛ فلأدفِّئ نفسي فحسب!" قال، وكأن الأمر ليس سوى الانتظار حتى يدفأ، وسيضع كل شيء في نصابه.

"حسنًا الآن، كيف حالك؟"

شعر إيڤان إيليتش بالطبيب كأنما يريد أن يقول: "حسنًا، كيف تسير أمورنا؟" لكنه حتى لو كان يشعر بذلك، فلن يفيد ذلك، وقال بدلاً من ذلك: "كيف قضيتَ ليلتك؟"

نظر إليه إيڤان إيليتش كأنما يريد أن يقول: "ألم تخجل حقًا من كذبك

أبدًا؟" لكن الطبيب لايريد أن يفهم هذا السؤال، وقال إيڤان إيليتش: "مرعبة كما هي دائمًا. لم يتركني الألم ولم يبتعد أبدًا. لو أن شيئًا فحسب.."

"نعم، أنتم- أيها المرضى- دائمًا كذلك.. هيًا، الآن أعتقد أنني دافئ بما يكفي. حتى براسكوڤيا فيدوروڤنا المدققة فلن تجد مشكلةً في درجة حرارتي. حسنًا، الآن يمكنني أن أقول: "صباح الخير"، وضغط الطبيب على يد مريضه.

نحَّى مرحه السابق، وبدأ في أكثر الأساسيات خطورة ليفحص مريضه، يجس نبضه، ويقيس درجة حرارته، ثم بدأ يدق وينصت.

يعرف إيڤان إيليتش تمامًا وبصورة مطلقة أن ذلك لا معنى له، ومحض خداع، لكن عندما انحنى الطبيب عليه- وهو يهبط على ركبتيه- واضعًا أذنيه في الأعلى ثم الأسفل، وقام بحركات جمباز مختلفة فوقه مع تعبيرات ذات مغزى على وجهه، خضع إيڤان إيليتش لكل هذا، مثلما اعتاد أن يخضع لأحاديث المحامين، رغم أنه كان يعرف جيدًا أنهم كلهم كاذبون، ولماذا يكذبون.

كان الطبيب ما يزال يفحصه، راكعًا على الكنبة، عندما أصدر ثوب براسكوڤيا فيدوروڤنا الحريري الحفيف عند الباب، وكانت توبخ بيتر لأنه لم يخبرها بقدوم الطبيب.

دخلت، قبَّلت زوجها، وتقدمت في الحال لتثبت أنها قد استيقظت من مدة طويلة، وأن سوء الفهم هو وحده الذي أدى لعدم استقبالها للطبيب عند وصوله.

نظر إليها إيڤان إيليتش، تفحصها كلها، جلس في مواجهة بياضها، وحيويتها ونظافة يديها وعنقها، ولمعان شعرها، والبريق الأخاذ في عينيها. إنه يكرهها من أعماق روحه. ورعشة الكراهية التي يشعر بها نحوها هي التي تجعله يعاني كلما لمسته.

ما يزال موقفها منه ومن مرضه كما هو. تمامًا مثلما يتبنى الطبيب علاقة معينة بمريضه لا يستطيع التخلي عنها، هكذا كوّنت هي موقفها تجاهه- أنه لا يفعل ما ينبغي فعله، وأنه هو نفسه الملوم، وأنها لامته على ذلك بحب- ولا تستطيع الآن تغيير هذا الموقف.

"ها أنت ترى أنه لايستمع إليّ ولا يتناول دواءه في الموعد المضبوط. وفوق كل ذلك يكذب بشأن وضعه السيء ولا شك- وهو دائمًا يرفع رجليه".

تصف كيف يجعل چيراسيم يمسك له رجليه عاليًا.

يبتسم الطبيب بدماثة مزدرية تقول: " ماذا نفعل؟ فهؤلاء المرضى يرتكبون أشياء خيالية حمقاء من هذا النوع، لكننا لابد أن نغفر لهم".

عندما انتهى الفحص، نظر الطبيب إلى ساعته، ثم أعلنت براسكوڤيا فيدوروڤنا لإيڤان إيليتش إنه بالطبع كما كان يحب، لكنها طلبت اليوم أخصائيًّا مشهورًا سيقوم بفحصه، والقيام باستشارة مع طبيبه المعتاد ميخائيل دانيلوڤيتش .

"من فضلك، لا اعتراضات. فأنا أفعل ذلك من أجلي"؛ قالت بسخرية، لتشعره بأنها إنما تفعل ذلك من أجله، ودون أن تترك له مجالاً

للرفض. ظل صامتًا، عاقدًا حاجبيه. أحس بأنه محاط ومنغمس في زيف متشابك الخيوط، ومن الصعب حل أي شيء.

فكل ما تفعله له هو- في الحقيقة- من أجلها تمامًا، وقد قالت له إنها تفعل ما من أجله ما كانت تفعله حقًّا من أجل نفسها، وكأنما كان من المستحيل أن يفهم العكس.

في الحادية عشرة والنصف وصل الأخصائي الشهير. مرةً أخرى، بدأ الفَحْص والأحاديث المهمة- تارةً في حضوره، وتارةً في الحجرة الأخرى- عن الكُلي والزائدة الدودية، والأسئلة والإجابات، بسيماء الأهمية تلك التي- بدلاً من السؤال الحقيقي المتعلق بالحياة والموت، وهو السؤال الوحيد الذي كان يواجهه الآن- طرحت السؤال عن الكُلية والزائدة الدودية، اللتين لا تؤديان وظائفهما كما ينبغي، واللتين سوف يتم الآن ضبطهما على يدَي ميخائيل دانييلوڤيتش والأخصائي، ودفعهما إلى على تعديل أدائهما.

غادره الأخصائي الشهير بنظرة جادة رغم أنها غير يائسة، وكإجابة على سؤال إيڤان إيليتش الخجول، بالتماعة العين بالخوف والأمل، طرح أمامه فرصةً للشفاء، وقال إنه لا يمكنه الجزم بها، لكن هناك احتمالاً ما. كانت نظرة الأمل- التي راقب بها إيڤان إيليتش الطبيب وهو يخرج- مثيرةً لشفقة براسكوڤيا فيدوروڤنا، إلى حد أن بكت حين غادرت الغرفة لتعطي للطبيب أتعابه.

لم تستمر التماعة الأمل التي أشعلها تشجيع الطبيب طويلاً. فنفس الحجرة،نفس الصور، والستائر، وورق الحائط، وقنينات الدواء، كانوا

هناك جميعًا، ونفس الجسد المتألم، وإيڤان إيليتش الذي بدأ يتأوه. أعطوه حقنة تحت الجلد وغرق في النسيان.

كان وقت الغسق عندما استيقظ. أحضروا له العشاء، وابتلع بعضًا من لحم البقر والشاي بصعوبة، ثم عاد كل شيء من جديد، فيما كان الليل يحل.

بعد العشاء، في الساعة السابعة، دخلت براسكوڤيا فيدوروڤنا الغرفة في ملابس السهرة، ونهديها مرتفعان بالمشَد، وبعض آثار مساحيق التجميل على وجهها. كانت قد ذكّرته في الصباح أنهم ذاهبون إلى المسرح. كانت سارة برنار تزور المدينة ولديهم مقصورة، كان قد أصر على حجزها. كان قد نسي الآن كل شيء عن هذا وساءته زينتها، لكن كدره زال عندما تذكر أنه هو بنفسه أصر على تأمين المقصورة لهم وذهابهم، لأن ذلك سيحقق متعة تربوية وجمالية لأولاده.

دخلت براسكوڤيا فيدوروڤنا، بالثقة في النفس لكن بمظهر المذنب. جلست وسألته عن حاله، من أجل السؤال فحسب، كما رأى، لا من أجل المعرفة، مدركةً أنه ما من شيء جدير بالمعرفة- وبعدها انتقلت إلى ما كانت تريد في الحقيقة قوله: إنها على أية حال لن تذهب، وأن المقصورة أخذتها هيلين ستذهب بصحبة ابنتهما، وأيضًا بيتريشيشيڤ (قاضي التحقيقات، وخطيب الابنة)، وأنه لم يكن من الوارد أن تتركهما يذهبان بمفردهما؛ لكنها فضلت كثيرًا البقاء معه لبعض الوقت؛ وأنه لابد من التأكد من اتباع تعليمات الطبيب فيما تكون في الخارج.

"آه، وفيدور بيتروڤيتش" (الخطيب) "يود الدخول. فهل يمكنه ذلك؟

وليزا؟"

"حسنًا"

دخلت ابنتهما في كامل ملابس السهرة، التي تعرض تفاصيل جسدها الغض (ذلك الاستعراض لهذا اللحم بالذات، الذى تسبب له- في حالته الخاصة- ألمًا كبيرًا) القوي، والمتمتع بالصحة، والذي يعشق فيما هو واضح، وغير الصبور مع المرض، والمعاناة، والموت، لأنهم يتعارضون مع سعادتها.

دخل فيدور بيتروڤيتش أيضًا، بملابس السهرة، وشعره مجعد على أسلوب (كابول)، وياقة مُنشاة حول رقبته الطويلة ذات العضلات، وصدرية بيضاء فخيمة، وبنطلون أسود ضيق محبوك على فخذيه القويتين. كان يرتدي قفازًا أبيض واحد محبوكًا، ويمسك بقبعة الأوبرا في يده.

زحف خلفه تلميذ المدرسة بلا انتباه من أحد، في زيه الجديد، رفيق صغير بائس، يرتدي القفازات. كان ثمة هالات سوداء بصورة مخيفة تبدو حول عينيه، كان يعرف معناها جيدًا يعرفها إيڤان إيليتش.

فابنه يبدو دائمًا مشفقًا عليه، وكان مرعبًا الآن رؤية نظرة الشفقة المذعورة في عين الولد. كان يبدو لإيڤان إيليتش أن ڤازيا هو الوحيد- إلى جانب چيراسيم- الذي يفهمه ويشفق عليه.

جلسوا جميعًا وسألوا عن صحته من جديد. عم الصمت. سألت ليزا أمها عن النظارات الخاصة بالأوبرا، وكانت هناك حركات متبادلة بينهما

فيما يتعلق بمن أخذها وأين وُضعت. وقد سبب ذلك له نوعًا من عدم الارتياح.

سأل فيدور بيتروڤيتش إيڤان إيليتش عما إذا كان قد رأى سارة برنار من قبل. لم يفهم إيڤان إيليتش السؤال في البداية، لكنه أجاب من بعد: "لا، ألم ترها من قبل؟"

"نعم، في أدريان لوكوڤرير".

وذكرت براسكوڤيا فيدوروڤنا بعض الأدوار التي أدتها سارة برنار وخاصة الجيدة منها. لم توافق ابنتها على رأيها. انتقل الحوار إلى أناقة وواقعية تمثيلها ـ نوع من الحديث الذي كان يتكرر دائمًا، ودائمًا هو نفسه.

في منتصف الحوار حملق فيدور بيتروڤيتش في إيڤان إيليتش، والتزم الصمت. نظر الآخرون إليه أيضًا وحل عليهم الصمت. كان إيڤان إيليتش يحدق بعين ملتمعة أمامه مباشرةً، كان من الواضح أنها نظرة ساخطة عليهم. وكان من الواجب تصحيح ذلك، لكن كان من المتحيل فعل ذلك. كان لابد من كسر الصمت، لكن أحدًا لم يجرؤ على كسره لبرهة، وأصبحوا جميعًا خائفين من افتضاح الخدعة التقليدية فجأةً، وأن تصبح الحقيقة واضحة للجميع. كانت ليزا أول امتلك الشجاعة وكسر ذلك الصمت، لكن بمحاولة إخفاء ما كان يشعر به الجميع، قامت بفضحه.

"حسنًا، إذا كنا سنذهب فقد حان الوقت لننطلق"، قالت، وهي تنظر لساعتها، التي أهداها لها والدها، وبابتسامة خافتة ذات معنى إلى

فيدور بيتروڤيتش تتعلق بشيءٍ ما لا يعرفه سواهما. قامت وفستانها يصدر الحفيف.

قاموا جميعًا. قالوا ليلة سعيدة، وذهبوا.

بعد أن غادروا، شعر إيڤان إيليتش بتحسن، فقد ذهب الزيف معهم. لكن الألم بقي- نفس الألم ونفس الخوف الذي يجعل كل الأشياء متشابهة برتابة، لا شيء أصعب ولا أسهل. كل شيء يصبح أسوأ.

ومن جديد، دقيقة تلي دقيقة، وساعة تلي ساعة. وكل شيء كما هو، بلا توقف.

والنهاية الحتمية لكل هذا أصبحت مخيفة أكثر فأكثر.

"نعم، أرسل لى چيراسيم إلى هنا"، أجاب على سؤال بيتر.

9

عادت زوجته متأخرة الليلة الماضية. دخلت على أطراف أصابعها، لكنه سمعها، فتح عينيه، وأغمضهما بسرعة. كانت تود أن تصرف چيراسيم لتجلس معه بنفسها، لكنه فتح عينيه وقال: "كلا، اذهبي".

"هل تتألم بشدة؟"

"الحال كما هو دائمًا".

"خُذ بعض الأفيون".

وافق، وأخذ قطعة. ورحلت.

حتى الثالثة صباحًا، كان في حالة بؤس مزرية. بدا له أنه هو والألم يُحشرون في حقيبة سوداء ضيقة وعميقة، لكن بالرغم من الدفع بهما أكثر فأكثر فلم يمكن دفعهما حتى القاع. وكان ذلك- وهو فظيع بما يكفي

في حد ذاته- مصحوبًا بالمعاناة. كان مرعوبًا، لكنه كان يريد السقوط في الحقيبة، وكان يناضل لكن ما من أحد كان يعاونه. وفجأةً أفلت، وهوى، واستعاد وعيه. كان چيراسيم يجلس على حافة السرير يغفو بهدوء وصبر، فيما كان هو مستلقيًا ورجلاه المهزولتان في الجوارب مستقرتان على كتفي چيراسيم؛ ونفس الشمعة الظليلة كان هناك كما هو، ونفس الألم كما هو بلا توقف.

"اذهب، يا چيراسيم".

"لا بأس، سيدي. سأمكث لبرهة".

"لا، اذهب".

أزاح رجليه من على كتفي چيراسيم، واستدار على جنبه متكئًا على ذراعه، وأحس بالأسى على نفسه. انتظر فحسب إلى أن ذهب چيراسيم إلى الحجرة المجاورة، ولم يتمالك نفسه أكثر من ذلك، فبكى كطفل. بكى لإحساسه بقلة الحيلة، ووحدته المرعبة، وقسوة البشر، وقسوة الرب، وغيابه.

"لماذا تفعل بي كل ذلك؟ لماذا أحضرتني إلى هنا؟ لماذا، لماذا تعذبني بتلك القسوة؟"

لم ينتظر إجابة، وبكى- مع ذلك- لأنه ليست هناك إجابة ولا يمكن أن تكون. ومن جديد، أصبح الألم أكثر حدة، لكنه لم يتحرك ولم يستدع أحدًا. قال لنفسه: "استمر! اضربني! لكن لماذا كل هذا؟ ماذا فعلت لك؟ لماذا كل هذا؟"

ثم هدأ قليلاً، ولم يتوقف فحسب عن البكاء، بل حتى كتم أنفاسه وأصبح بالغ الانتباه. كان كأنه يستمع لا لصوت مسموع، بل يستمع إلى صوت روحه، إلى سيل الأفكار التي تتصاعد بداخله.

"ما الذي تريد؟" كان ما سمعه أول مفهوم واضح يمكن التعبير عنه في كلمات.

"ماذا تريد؟ ماذا تريد؟" كرر لنفسه.

"ماذا أريد؟ أن أعيش ولا أعاني"، كان هذا رده.

ومن جديد، استمع بتركيز واهتمام لدرجة أن الألم حتى لم يصرف انتباهه.

"تعيش؟ كيف؟" سأله صوته الداخلي.

"لماذا، أعيش كما اعتدت- بشكل جيد وسعادة".

"كما عشت من قبل، بشكل جيد وسعادة؟" كرر الصوت الكلام.

وبدأ يستدعي في خياله أفضل لحظات حياته السعيدة. لكن- للغرابة- فما من إحدى تلك اللحظات الأفضل في حياته السعيدة كانت تبدو الآن مثلما كانت تبدو آنئذٍ- ولا واحدة، فيما عدا حكايات الطفولة. في الطفولة، كان هناك شيء ما سعيد، ويمكن معه العيش فيما كان ممكنًا له العودة. لكن الطفل الذي عاش تلك السعادة لم يعد له وجود، كان كمجرد ذكرى لشخص آخر.

فبمجرد أن بدأت الفترة التي أنتجت إيڤان إيليتش الحالي، فإن كل ما

كان يبدو مبهجًا ذاب أمام نظره، وتحول إلى شيءٍ ما تافه وغالبًا كريه.

وكلما ابتعد عن مرحلة الطفولة، واقترب من الحاضر، عرف أن تلك البهجة مشكوكٌ فيها ولا قيمة لها. بدأت تلك المرحلة مع مدرسة القانون. كان القليل هو ما لا يزال جيدًا بالفعل- كان ثمة مرح القلب، الصداقة، والأمل. لكن في طبقات المجتمع العليا، كان هناك الأقل من تلك اللحظات الجميلة. ثم أثناء الأعوام الأولى في عمله الرسمي، عندما كان في خدمة المحافظ، حدثت بعض الأشياء السعيدة: كانت ذكريات حب امرأة. وبعد ذلك اضطرب كل شيء وأصبح هناك القليل مما هو جيد؛ ومن جديد فيما بعد كان ما يزال ثمة الأقل مما هو جيد، وكلما ابتعد بذاكرته وجد الأقل. زواجه، مجرد واقعة، ثم خيبة الأمل التي تبعته، وطبع زوجته السيء والشهوانية والنفاق: ثم تلك الحياة الوظيفية الميتة، وتلك الانشغالات المتعلقة بالمال، لعام، واثنين، وعشرة، وعشرين، ودائمًا الحال كما هو. وكلما استمر ذلك الحال أصبح مميتًا أكثر. "كان يبدو وكأنني أنزل إلى الوادي فيما كنت أتخيل أنني أصعد. وذلك بالفعل ما كان. كنت أصعد بالنسبة للرأى العام، لكن بنفس النسبة كانت الحياة تنحسر بداخلى. والآن، انتهى كل شيء، ولم يتبق سوى الموت.

"ماذا يعنى ذلك، إذن؟ لماذا؟ فلا يمكن أن تكون الحياة مخيفة هكذا وبلا معنى. لكن لو أنها فعلاً مخيفة وبلا معنى، فلماذا لابد أن أموت معذبًا؟ هناك خطأ ما!

"ربما لم أعش كما ينبغي لي"، خطر بباله فجأة. "لكن كيف يكون

ذلك، متى فعلت كل شيء بالطريقة المناسبة؟" أجاب، وسرعان ما محا ذلك من تفكيره، فالحل الوحيد لألغاز الحياة والموت يشبه شيئًا ما مستحيلاً تمامًا.

"والآن، ماذا تريد الآن؟ أن تعيش؟ كيف تعيش؟ تعيش كما عشت في المحاكم عندما يعلن الحاجب: القاضي قادم! القاضي قادم! القاضي!" كررها مع نفسه. "ها هو، القاضي. لكنني لست مذنبًا!" صاح بغضب. "لماذا كل هذا؟" وتوقف عن الصراخ، لكنه إذ أدار وجهه نحو الحائط، استمر في تأمل نفس السؤال: لماذا، ولأي غرض، كل هذا الرعب؟ لكنه كلما تأمل أكثر لا يجد أية إجابة. وكلما لاحت له الفكرة، كما تفعل كثيرًا، وتكون النتيجة أنه لم يعش كما ينبغي له، كان يستدعي في الحال صرامة حياته كلها، ويطرد مثل هذه الفكرة الغريبة.

10

مر أسبوعان آخران. لم يعد إيڤان إيليتش يفارق الأريكة. لم يكن يرغب في النوم على السرير، بل الرقاد على الأريكة، مواجهًا الحائط طوال الوقت تقريبًا. كان يعاني دائمًا من نفس عذاباته التي لا تتوقف، وفي وحدته كان يتأمل نفس السؤال بلا إجابة: "ما هذا؟ أيمكن أن يكون ذلك هو الموت؟" ويجيبه الصوت الداخلي: "نعم، هو الموت".

"لم كل هذه المعاناة؟" ويرد الصوت: "بلا سبب- إنها كذلك تمامًا". وعدا ذلك، لم يكن ثمة شيء آخر.

منذ بداية مرضه تمامًا، حتى منذ أول زيارة له للطبيب، انقسمت حياة إيڤان إيليتش إلى مزاجين متضادين ومختلفين: آنًا، كان اليأس وانتظار موته المخيف وغير المفهوم؛ وآنًا، كان الأمل وملاحظة متمعنة مهتمة بوظائف أعضائه. آنًا، كان أمام عينية ثمة كُلية أو أمعاء تتهرب

مؤقتًا من أداء واجبها؛ وآنًا، لم يكن هناك سوى ذلك الموت المخيف غير المفهوم، والذي لم يكن مفر منه.

تلك الحالتان النفسيتان كانتا تتناوبانه منذ بداية مرضه، لكنه كلما تقدم المرض أصبح أمر الكُلية مشكوكًا فيه وغريبًا أكثر فأكثر، وازدادت واقعية الإحساس بالموت الوشيك.

لم يكن عليه سوى أن يستدعى في ذاكرته ما حدث قبل ثلاثة أشهر، وما أصبح عليه الآن، أن يتذكر بأي انتظام كان يتم السقوط، ليبعثر كل احتمالات الأمل.

مؤخرًا، أثناء وحدته التي وجد نفسه فيها مستلقيًا يواجه ظهر الأريكة، وحدة وسط مدينة مزدحمة ومحاطًا بمعارف وأقارب كثيرين، لكن ذلك- مع ذلك- لا يمكن أن يكون أكثر اكتمالاً في أي مكان- سواء في قاع البحر أو تحت الأرض- خلال تلك الوحدة المخيفة عاش إيڤان إيليتش فقط في ذكرياته. انبثقت صور الماضي أمامه واحدةً تلو الأخرى. كانت تبدأ دائمًا بالأقرب في الزمن، ثم تمضي إلى الوراء إلى ما هو أبعد- إلى طفولته- وتستقر هناك. وعندما يتذكر مذاق الخوخ الفرنسي الناضج الذي قُدم إليه في ذلك اليوم، كان عقله يعود إلى الوراء، إلى البرقوق الفرنسي النيئ الذابل، في طفولته، ومذاقه الغريب، وتدفق اللعاب في فمه عندما يمتص النواة؛ برفقة ذكرى ذلك المذاق أتت سلسلة كاملة من ذكريات تلك الأيام: مربيته، وأخوه، وألعابهما. "لا، ليس عليَّ أن أفكر في ذلك... إنه مؤلم جدًّا"، قال إيڤان إيليتش لنفسه، وأعاد نفسه إلى الحاضر- إلى الأزرار في ظهر الأريكة والطيات ذات الطراز المغربي.

"الطراز المغربي باهظ الثمن، لكنه لا يتحمل جيدًا. كان هناك شجار بشأنه. كان نوعًا مختلفًا من الشجارات، ونوعًا آخر من الطراز المغربي في ذلك الحين، حين مزقنا حافظة الوالد وعوقبنا، وأحضرت ماما لنا بعض الحلوى..." ومرةً أخرى، استقرت أفكاره عند طفولته، ومرةً أخرى كان ذلك مؤلماً، وحاول أن يبعدها، ويركز تفكيره على شيء آخر.

ثم- مرةً أخرى- ومع سلسلة الذكريات تلك مرت سلسلة أخرى في مخيلته- عن كيفية تقدم مرضه وتحوله إلى الأسوأ. وكان كلما أوغل أكثر في الماضي كان يرى كم كان أكثر حيوية. واندمجت السلسلتان معًا. "كلما أصبح الألم أسوأ فأسوأ، أصحبت حياتي أسوأ فأسوأ"، فكر إيڤان إيليتش. "هناك بقعة ضوء واحدة هناك في الوراء، في بداية الحياة، وفيما بعد يصبح كل شيء أكثر فأكثر سوادًا، ويتفاقم أسرع فأسرع- بمعدل معكوس إلى مربع المسافة من الموت"، فكر إيڤان إيليتش. وأعجبه مثال الحجر الذي يسقط إلى أسفل بسرعة متزايدة. فالحياة سلسلة من الآلام المتزايدة، تطير أبعد فأبعد إلى نهايتها- المعاناة الأفظع. "أنا أطير..." ارتجف، وضبط نفسه، وحاول المقاومة، لكنه كان مدركًا حقًّا أن المقاومة مستحيلة، و- من جديد- بعينيه المتعبتين من التحديق لكن العاجزتين عن التوقف عن رؤية ما كان أمامهما، حدق في ظَهر الأريكة وانتظر- منتظرًا ذلك السقوط المروِّع والصدمة والارتطام.

"المقاومة مستحيلة"، قال لنفسه. "ولو استطعت فحسب أن أفهم لماذا يحدث لي ذلك! لكن هذا مستحيل أيضًا. ويمكن للتفسير أن يكون ممكنًا فيما لو كان أمكن القول إنني لم أعش كما ينبغي لي أن أعيش. لكن من المستحيل قول ذلك"، وتذكر كل الشرعية، والاستقامة، وصواب

حياته. "ذلك لا يمكن بالتأكيد ـ وبأية حال ـ الإقرار به"، فكر، وابتسمت شفتاه ابتسامة ساخرة، كأن أحدًا ما يمكن أن يرى تلك الابتسامة، وينخدع بها. "ما مِن تفسير! عذاب، موت.. من أجل ماذا؟"

11

مضى أسبوعان آخران على نفس الحال؛ إلا أن هناك مناسبة كان يتمناها إيڤان إيليتش وزوجته قد حدثت. فقد تقدم بيتريشيشيف رسميا لخطبة ابنتهما. حدث ذلك ذات مساء. وفي اليوم التالي دخلت براسكوڤيا فيدوروڤنا إلى حجرة زوجها وهي تفكر في أفضل طريقة تخبره بها. لكن في نفس تلك الليلة كان هناك تغير جديد في حالته إلى الأسوأ. وجدته ما يزال مستلقيًا على الأريكة، لكن في وضع مختلف. كان مستلقيًا على ظهره، يتأوه ويحدق بثبات إلى الأمام.

بدأت في تذكيره بموعد الأدوية، لكنه أدار عينيه ناحيتها بتلك النظرة التي تجعلها تنهى ما كانت تقول: عداء هائل، تجاهها خاصةً، هو ما عبرت عنه تلك النظرة.

قال: "لخاطر المسيح، دعيني أمُت في سلام".

كان المفروض أن تنصرف، لكن- في هذه اللحظة- دخلت الإبنة لتقول له "صباح الخير". نظر إليها نفس نظرته إلى زوجته، وكرد على استفسارها عن صحته، قال بجفاء إنه سوف يخلصهم قريبًا من نفسه. صمتت كلتاهما، وبعد برهة خرجتا من الحجرة.

"هل هو خطؤنا؟" قالت ليزا لأمها. "كأنما نحن مَن يُلام على ذلك! أنا حزينة من أجل بابا، لكن لماذا لابد أن نتعذب نحن؟"

جاء الطبيب في وقته المعتاد. أجابه إيڤان إيليتش "نعم" و"لا"، دون أن يرفع عينيه الغاضبتين عنه، وفي النهاية قال: "أنت تعرف أنك لن تستطيع أن تفعل شيئًا من أجلي، فاتركني وحدي".

"نستطيع تخفيف معاناتك".

"إنك لا تستطيع حتى فعل ذلك. فدعني كما أنا".

دخل الطبيب إلى الصالون وأخبر براسكوڤيا فيدوروڤنا أن الحالة أصبحت خطيرة جدًّا، وأن الحل الوحيد المتاح هو الأفيون، لتخفيف آلام زوجها، التي لابد أنها رهيبة.

كان ذلك صحيحًا، حيث قال لها الطبيب إن آلام إيڤان إيليتش الجسدية فظيعة، لكن ما هو أسوأ من الآلام الجسدية هو الآلام النفسية التي كانت تُشكل عذابه الأكبر.

كانت آلامه النفسية ترجع إلى تلك الليلة- حين نظر إلى وجه چيراسيم الطيب النائم، بوجنتين بارزتين- فخطر بباله فجأة السؤال: "وماذا لو كانت كل حياتي خطأ؟"

خطر بباله ما كان يبدو له- من قبل- أنه مستحيل تمامًا، تحديدًا أن فكرة أنه لم يعش حياته كما كان ينبغي له أن يعيشها قد تكون- في خاتمة المطاف- صحيحة. خطر بباله أن محاولاته التي يمكن بالكاد إدراكها للنضال ضد ما كانت الطبقات الأرقى تعتبره جيدًا، تلك الاندفاعات الملحوظة بالكاد التي كان يقوم على الفور بقمعها، ربما كانت الشيء الحقيقي، وكل ما تبقى زائف. وواجباته الوظيفية، واهتماماته العائلية والرسمية، ربما كانت جميعًا زائفة. حاول الدفاع عن كل ذلك إزاء نفسه، وفجأةً أحس بضعف ما كان يدافع عنه. فلا شيء يستحق الدفاع عنه.

"لكن لو كان ذلك كذلك"، قال لنفسه، "وأنا أغادر هذه الحياة مع إدراك أنني قد ضيعتُ ما مُنح لي، ومن المستحيل استعادته- فماذا إذن؟"

استلقى على ظهره وبدأ يراجع حياته بطريقة جديدة تمامًا. وفي الصباح عندما رأى الخادم، ثم زوجته، ثم ابنته، ثم الطبيب، كانت كل كلمة وحركة منهم تؤكد له الحقيقة المرة التى تكشفت له خلال الليل. رأى نفسه فيهم- كل ما عاش من أجله- ورأى بوضوح تام أنه لم يكن حقيقيًّا بالمرة، بل كان خدعة كبيرة ومرعبة تخفي حقيقة الحياة والموت. كثف هذا الوعي من عذابه الجسدي عشرات الأضعاف. كان يتأوه ويتخبط، ويخلع ملابسه التي كانت تقيده وتخنقه. لقد كره الجميع لذلك السبب.

تم إعطاؤه جرعة كبيرة من الأفيون، وغاب عن الوعى، لكنه آلامه عاودته في الظهيرة من جديد. كان يطرد أي شخص، ويتخبط من جانب إلى آخر.

جاءت زوجته وقالت:

"جان، عزيزي، فلتفعل ذلك من أجلي. لن يؤذيك، وغالبًا سيساعدك. فالأصحاء كثيرًا ما يفعلون ذلك".

فتح عينيه على اتساعهما:

"ماذا؟ أتناول العشاء الرباني؟ لماذا؟ غير ضروري! على أية حال.."

بدأت في البكاء.

"نعم، يا عزيزي، فلتفعلها. سأرسل إلى القس. إنه رجل لطيف".

"حسنًا. حسنًا جدًا".

عندما دخل القس وسمع اعترافه، هدأ إيفان إيليتش وبدا أنه يشعر براحة من شكوكه، وبالتالى من آلامه، وللحظة انتابه شعاعٌ من أمل. بدأ يفكر من جديد في الزائدة الدودية وإمكانية علاجها. تلقى القربان والدموع في عينيه.

عندما أرقدوه من جديد فيما بعد، أحس بلحظة راحة، واستيقظ بداخله من جديد الأمل. بدأ يفكر في الجراحة التي اقترحوها عليه. "كي أعيش! أريد أن أعيش"، قال لنفسه.

دخلت زوجته لتهنئه بعد تناول القربان، وبعد الكلمات التقليدية المعتادة، أضافت:

"تشعر بتحسن، أليس كذلك؟"

بدون أن ينظر إليها، قال: "نعم".

ملابسها، مظهرها، تعبيرات وجهها، ونبرة صوتها؛ كل ذلك كان يكشف نفس الشيء.

"ذلك خطأ. ليس كما يجب. كل ما عشتم من أجله وما سوف تعيشون من أجله هو الزيف والخداع، ليخفى حقيقة الحياة والموت عنكم". وبمجرد الاعتراف بهذه الفكرة، انفجر كرهه وألمه الجسدي من جديد، ومع ذلك الألم إدراك للنهاية الوشيكة المحتومة. وأضيف إلى ذلك إحساس جديد بألم صاعد طاحن وشعور بالاختناق.

كان تعبير وجهه عندما نطق بتلك الـ"نعم" مرعبًا. وبعد نطقها، نظر إليها مباشرة في عينيها، وأشاح بوجهه بسرعة غير عادية في حالته الواهنة وصرخ: "اذهبوا بعيدًا! اذهبوا بعيدًا واتركوني وحيدًا!"

12

منذ تلك اللحظة لم يتوقف الصراخ لثلاثة أيام، وكان مريعًا إلى حد أن أحدًا لم يسمعه عبر بابين مغلقين إلا وأصابه الرعب. في اللحظة التي رد فيها على زوجته أدرك أنه قد ضاع، أن لا عودة، أن النهاية قد حانت، وأن شكوكه ما تزال بلا حل وظلت شكوكًا.

"آه! آه! آه!" أطلق صرخاته بنغمات مختلفة. "أنا لن!" وواصل الصراخ على حرف "آ".

لمدة ثلاثة أيام كاملة، خلالها فقد الإحساس بالوقت، صارع داخل تلك الحقيبة السوداء التي حُشر فيها عنوة بفعل قوة خفية، لا يمكن مقاومتها. صارع مثلما يصارع رجل محكوم عليه بالموت بين يدي الجلاد، مدركًا أنه لا يستطيع إنقاذ نفسه. وكل لحظة كان يشعر أنه- برغم كل جهوده- إنما يقترب أكثر فأكثر ما يرعبه. كان يشعر بأن عذابه

كان نتيجة حشره في تلك الحفرة السوداء، وما يزال هناك الكثير لعدم مقدرته على الدخول الصحيح فيها.

أعاق دخوله فيها تلك القناعة بأن حياته كانت حياة جيدة. ذلك التبرير لحياته بالذات أعاقه بشدة ومنعه من التحرك قُدمًا، وتسبب له في أكبر عذاب.

صدمته فجأةً قوةٌ ما في صدره وجنبه، بما جعل التنفس صعبًا، وسقط في الحفرة، وهناك في القاع كان ثمة ضوء. ما حدث له كان يشبه الإحساس الذي ينتاب المرء أحيانًا في عربة السكة الحديد، عندما يظن المرء بأنه يمضي إلى الوراء بينما هو فى الحقيقة يمضي إلى الأمام، وفجأةً يدرك الاتجاه الصحيح.

"نعم. ما مضى لم يكن الصواب"، قال لنفسه، "لكن لا يهم. فمن الممكن إصلاحه. لكن ما هو الصواب؟" سأل نفسه، وفجأةً هدأ.

حدث ذلك في نهاية اليوم الثالث، قبل موته بساعتين. حينها دخل ابنه التلميذ زاحفًا بنعومة وصعد بجانبه. كان الرجل المحتضر ما يزال يصرخ بيأس وهو يلوح بذراعيه. سقطت يده على رأس الصبي، أمسكها الصبي، ووضعها على شفتيه وبدأ يبكي.

في تلك اللحظة، سقط إيفان إليتش ولمح الضوء وتكشف له أن حياته رغم أنها لم تسر كما كان ينبغي أن تكون، إلا أن ذلك ما يزال قابلاً للإصلاح. سأل نفسه: "ما هو الصواب؟" ولزم السكون، مرهفًا سمعه. ثم أحس بأن أحدًا يُقبل يده. فتح عينيه، نظر إلى ابنه، وأحس بالحزن من أجله. جاءت زوجته إليه، ونظر إليها. كانت تحدق فيه بفم

مفغور، ودموع لم تجف على أنفها ووجنتها، ونظرة يأس على وجهها. أحس بالحزن من أجلها هي أيضًا.

"نعم، إنني أتسبب في بؤسهم"، فكَّر. "إنهم محزونون، لكن سيكون الأفضل لهم أن أموت". تمنى أن يقول ذلك، لكنه لم يملك القوة لينطقها. "وفضلاً عن ذلك، فلماذا أتحدث؟ لابد أن أفعل"، فكَّر. وبنظرة إلى زوجته أشار إلى ابنه، وقال: "خذيه بعيدًا... آسف لأجله... آسفٌ لك أيضًا..." حاول أن يضيف: "سامحوني"، لكنه قال "سامحو"، وأشار بيده، مدركًا أن ما يقصده مفهوم.

وفجأةً أصبح واضحًا لديه أن كل ما كان يضغط عليه ولا يتركه كان يتلاشى الآن من جانبين، من عشرة جوانب، من كل الجوانب. كان حزينًا من أجلهم، ولابد أن يتصرف بطريقة لا تؤذيهم: أطلقهم وحرر نفسك من هذه العذابات.

"كم هو جيد وسهل!" فكَّر. "والألم؟" سأل نفسه. "ماذا سيفعل؟ أين أنت، أيها الألم؟"

انتبه لذلك.

"نعم. ها هو. حسنًا، فماذا عنه؟ فليكن الألم".

"والموت...أين هو؟"

بحث عن خوفه السابق المعتاد من الموت، ولم يجده. "أين هو؟ أي موت؟"

لم يكن ثمة خوف، لأنه ما مِن موت.

وبدلاً من الموت كان ثمة ضوء.

"هكذا هو إذن!" صاح فجأةً عاليًا. "يا للبهجة!"

بالنسبة له، فقد حدث كل ذلك في لحظة وحيدة، ولم يتغير معنى هذه اللحظة. وبالنسبة لمرافقيه، فقد استمر احتضاره لساعتين أخريين. قرقع شيءٌ ما في حلقه، وارتعد جسده النحيف، ثم خفَّت حدة الحشرجة والقرقعة أقل فأقل.

"لقد انتهى!"، قالها شخصٌ ما بجواره.

سمع تلك الكلمات، ورددها داخل روحه.

"انتهى الموت"، قال لنفسه، "لم يعد موجودًا!"

سحب نفسًا، و- في منتصف الشهيق- تصلَّب، ومات.

اليُوشَـا الإنَــاء

إليوشا أصغر إخوته. وهم يدعونه "**الإناء**"، لأن أمه أرسلته ذات مرة بإناء لبن إلى زوجة الشمَّاس، فتعثر بشيءٍ ما، وكسر الإناء. ضربته أمه، وسخر منه الأطفال. ومنذ ذلك الحين، أطلق عليه لقب "**الإناء**". كان اليوشا نحيفًا صغير الجسم، بأذنين كالجناحين، وأنف ضخمة. "اليوشا له أنف تشبه كلبًا على التل!"، هكذا اعتاد الأولاد أن يقولوا من ورائه. ذهب اليوشا إلى مدرسة القرية، لكنه لم يكن طالبا مُجدًا؛ بالإضافة إلى قلة الوقت المخصص للتعليم. فأخوه الأكبر يعمل في المدينة لدى تاجر، وكان على اليوشا مساعدة الأب منذ طفولته المبكرة. ومنذ أن كان في السادسة لا أكثر كان معتادًا على الذهاب مع الصغيرات للفرجة على الأبقار والماشية في المرعى، وبعد فترة قصيرة كان يعتني بالخيول ليل نهار. وفي سن الثانية عشرة كان قد بدأ بالفعل في حرث الأرض وقيادة

العربة الكارو. كانت لديه الموهبة، وإن لم تكن لديه القوة الكافية. كان دائما مرحًا. وعندما كان الأولاد يسخرون منه، كان إما يضحك أو يبقى صامتًا. وعندما يوبخه والده كان يقف صامتًا ويستمع بانتباه، وبمجرد أن ينتهي التوبيخ كان يبتسم ويذهب إلى عمله. كان اليوشا قد بلغ التاسعة عشرة عندما دخل أخوه الجندية. لذلك أرسله الأب إلى التاجر بدلاً من أخيه كحمال. أعطوه حذاء أخيه القديم، ومعطف أبيه وقبعته القديمين، وأرسل إلى المدينة. فرح اليوشا بملابسه، لكن التاجر لم يسره شكله.

"اعتقدت أنك ستأتي لي برجل بدلاً من سيميون"، قالها وهو يتفحص اليوشا؛ "فإذا بك تحضر لي هذا! فما الفائدة من ورائه؟"

"إنه يستطيع القيام بكل شيء؛ يعتني بالخيول ويقود العربة. إنه شخص جيد في العمل. يبدو نحيفًا إلى حدٍّ ما، لكنه قوي تمامًا. ولديه الرغبة تمامًا".

"يبدو كذلك. حسنًا؛ سنرى ماذا يمكننا أن نفعل به".

وهكذا بقي اليوشا مع التاجر.

لم تكن أسرته كبيرة. كانت تتألف من التاجر وزوجته: والدته المسنة: ابن متزوج لم يتعلم جيدًا يعمل مع والده: ابن آخر، متعلم أنهى تعليمه في المدرسة والتحق بالجامعة، لكنه طُرد، وكان يعيش في المنزل: وابنة ما تزال في المدرسة.

لم يتعودوا على اليوشا في البداية. كان شكله فظًّا، وملبسه رديء،

وبلا حُسن سير وسلوك، لكنهم سرعان ما تعودوا عليه. وعمل اليوشا حتى أفضل من أخيه؛ كانت لديه الاستعداد الكبير حقًا. كانوا يرسلونه في كل المهام، لكنه كان يؤديها كلها بترحيب وبسرعة، ذاهبًا من مهمة إلى غيرها دون توقف. وهنا، مثلما يحدث في المنزل، أُلقي كل العمل على عاتقه. وكلما قام بالكثير تم تكليفه بأعمال أكثر. سيدته، أمه العجوز، الإبن، الإبنة، الموظف، والطباخه- كلهم كانوا يأمرونه، ويرسلونه من مكان إلى آخر.

"اليوشا، فلتفعل هذا! اليوشا، فلتفعل ذاك! ماذا! هل نسيت، يا اليوشا؟ فلتحرص على ألا تنسى، يا اليوشا!" كانت هذه الكلمات تُسمع من الصباح وحتى الليل. واليوشا يجري هنا، ويعتني بهذا وذاك، ولا ينسى شيئًا، ويجد الوقت لكل شيء، ودائمًا مبتهج.

سرعان ما تمزق حذاء أخيه، ووبخه سيده على ملابسه البالية وأصابع قدمه التي تبرز إلى الخارج. أمر بشراء حذاء جديد له من السوق. فرح اليوشا بحذائه الجديد، لكنه كان غاضبًا من قدمه عندما آلمته أصابعه في نهاية يوم من الركض في كل ناحية. ثم إنه خاف من أن أبيه سيغضب عندما سيأتي إلى المدينة ليأخذ راتبه، فيجد سيده قد خصم منه ثمن الحذاء.

وفي الشتاء، كان اليوشا معتادًا على النهوض قبل الفجر. كان يشق الأخشاب، ويكنس الفناء، ويطعم الأبقار والخيول، ويشعل الموقد، وينظف الأحذية، ويعد السماور (آنية الشاي) ويلمعها؛ أو يرسله الموظف لشراء بعض اللوازم، أو تجعله الطباخة يعجن الخبز وينظف

القدور. ثم يتم إرساله الى المدينة لبعض المهام المختلفة، ليحضر الإبنة من المدرسة، أو لشراء بعض زيت الزيتون للأم العجوز. "لماذا- بحق الشيطان- تتأخر هكذا؟"، يقولها له واحد، ثم الآخر. لماذا تذهبون؟ فاليوشا يمكنه أن يذهب. "اليوشا! اليوشا!" ويجرى اليوشا هنا وهناك. يتناول فطوره خطفًا أثناء عمله، ونادرًا ما نجح في تناول عشائه في الوقت المناسب. وكانت الطباخة معتادة على توبيخه دائمًا على تأخره، لكنها كانت جزينة من أجله على أية حال، وتحتفظ له ببعض الأكل الساخن لغدائه وعشائه.

وفي الأجازات، يكون العمل أكثر من ذي قبل، لكن اليوشا كان يحب الأجازات لأنه يأخذ البقشيش من الجميع. ليس كثيرًا في الحقيقة، لكنه يمكن أن يصل إلى 60 كوبك كنقود خاصة به. ذلك أن اليوشا لم يبصر أبدًا راتبه. فقد اعتاد والده أن يأتي ويأخذه من التاجر، وأيضًا يوبخه على أنه أبلى حذاءه.

وعندما ادخر 4 روبلات، حسب نصيحة الطباخة، اشترى سترة تريكو حمراء لنفسه، وكان سعيدًا للغاية عندما ارتداها، إلى حد أنه لم يستطع إغلاق فمه من الفرحة. ولم يكن اليوشا ثرثارًا؛ إذا ما تحدث أصلاً، فهو يتحدث فجأةً، وهو يدير رأسه. وعندما يؤمر بعمل شيءٍ ما، أو يُسأل إن كان يمكنه القيام به، كان يقول نعم بلا أدنى تردد، ويشرع في العمل في الحال.

لم يعرف اليوشا أية صلاة؛ ونسي ما علمته له أمه. لكنه كان يصلي نفس الصلاة كل صباح وكل مساء، يصلى بيديه، وهو يرسم شارة

الصليب على نفسه.

وقد عاش على هذا النحو لعام ونصف تقريبًا، وقرابة نهاية العام الثاني حدث له شيء مذهل. فقد اكتشف ذات يوم- في استغراب بالغ- أنه بالإضافة إلى العلاقة النفعية القائمة بين الناس، فهناك أيضًا علاقة أخرى، علاقة خصوصية ذات سمة بالغة الاختلاف. فبدلاً من هذا الرجل المطلوب لتنظيف الأحذية، والذهاب إلى المشاوير، وسرج الأحصنة، فإنه ليس مرغوبًا من أجل أيٍّ من هذه الخدمات أبدًا، بل ثمة شخص آخر يريد خدمته ويحبه. فجأةً أحس اليوشا أنه مثل هذا الرجل.

اكتشف هذا في الطباخة يوستينيا. كانت صغيرة، بلا أب وأم، وتقوم بأعمال شاقة مثل اليوشا. شعر لأول مرة في حياته أنه هو- وليس خدماته، بل هو نفسه- كان ضروريًا بالنسبة لإنسان آخر. فحينما كانت أمه تحزن من أجله، لم يكن ليلحظ ذلك. كان ذلك يبدو له أمرًا طبيعيًّا تمامًا، كأنه كان يشعر بالحزن على نفسه. لكن هنا كانت يوستينيا، شخص غريب تمامًا، ويحزن من أجله. كانت تحتفظ له ببعض الحساء الساخن، وتجلس وهي تنظر إليه، مسندة ذقنها على ذراعها العارية، لأنه الأكمام مشمرة، عندما يأكل. وعندما كان ينظر إليها تبدأ في الضحك، ويضحك هو أيضًا.

كان ذلك شيئًا جديدًا، وغريبًا بالنسبة له إلى حدٍّ أن أخاف اليوشا. خاف أن يتدخل ذلك في عمله. لكنه كان سعيدًا، ومع ذلك، وعندما كان يرى بنطلونه الذي أصلحته له يوستينيا، كان يهز رأسه ويبتسم. وكان يفكر فيها كثيرًا أثناء عمله، أو عندما يجرى لأداء مهمة ما. "بنت

طيبة، يوستينيا!"، كان يتعجب أحيانًا.

كانت يوستينيا معتادةً على مساعدته على قدر استطاعتها، وكان يساعدها. حكت له كل شيء عن حياتها؛ كيف فقدت أبويها؛ كيف تبنتها عمتها ووجدت لها مكانًا في المدينة؛ وكيف أن ابن التاجر حاول أن يأخذ حريته معها، وكيف أنها صدته. كانت تحب أن تتكلم، وكان اليوشا يحب أن يستمع لها. لقد سمع أن الفلاحين الذين يأتون للعمل في المدينة يتزوجون غالبًا من خادمات. وفي إحدى المناسبات سألته إن كان والداه يرغبان في تزويجه قريبًا. أجاب بأنه لا يعرف؛ وأنه لا يرغب في الزواج من إحدى فتيات القرية.

"هل أعجبت بواحدة من قبل، إذن؟"

"أريد الزواج منك، إذا قبلتِ"

"أنا منسجمة معك، يا اليوشا "**الإناء**"؛ وقد وجدت لسانك، أليس كذلك؟" صاحت، وهي تضربه على ظهره بمنشفة في يدها. "ولِمَ لا؟"

في شروڤيتايد جاء الوالد إلى المدينة ليأخذ الراتب. ووصل إلى مسمع زوجة التاجر أن اليوشا يريد الزواج بيوستينيا، ولم توافق على ذلك: "ما الفائدة منها، وهي تحمل طفلاً؟"، فكرت ثم أخبرت زوجها.

أعطى التاجر إلى الرجل العجوز راتب اليوشا.

"كيف حال الفتى معك؟"، سأل. "قلت لك إنه راغب".

"حسنًا، الأمور تسير بخير، إلا من بعض الهراء الذي يدور في رأسه. فهو يريد الزواج من طباختنا. وأنا لا أوافق على زواج الخدم. لن

نريدهما في منزلنا".

"حسنًا، الآن، مَن كان يظن أن الأحر سيفكر في أمر كهذا؟" تعجب الرجل العجوز. "لكن، لا تقلق. فسوف أحل هذا الموضوع قريبًا".

دخل إلى المطبخ، وجلس إلى المائدة ينتظر ابنه. كان اليوشا بالخارج في أحد المشاوير، وجاء مقطوع الأنفاس.

"اعتقدت أن عندك بعض العقل؛ لكن ما هذا الذي يدور برأسك؟" بدأ والده الكلام.

"أنا؟ لاشيء".

" كيف، لاشيء؟ لقد أخبروني أنك تريد الزواج. وسوف تتزوج لكن في الوقت المناسب. سأزوجك من زوجة لائقة، وليس من إحدى عاهرات المدينة".

تحدث الأب وتحدث، بينما وقف اليوشا ساكنًا يتنهد. وعندما انتهى الأب من الحديث، ابتسم اليوشا.

"وهو كذلك، سألغي هذا الأمر".

"وهذا هو العقل".

عندما انفرد بيوستينيا أخبرها بما قاله والده. (كانت قد سمعت الكلام عبر الباب).

"إنه ليس أمرًا جيدًا؛ لا يمكن لهذا أن ينتهي. هل تسمع؟ لقد كان غاضبًا ـ ولن يحدث هذا مهما بلغ الثمن".

بكت يوستينا في المريلة.

هز اليوشا رأسه.

"ماذا نفعل؟ لابد أن ننفذ ما قيل لنا ".

"حسنًا، هل ستكف عن هذا الهراء، كما قال لك والدك؟" سألته سيدته، فيما كان يضع مصاريع الأبواب في المساء.

"بالتأكيد سنفعل"، رد اليوشا بابتسامة، ثم انفجر في البكاء.

منذ ذلك اليوم، استمر اليوشا في عمله كالمعتاد، ولم يعد يتحدث مع يوستينيا عن زواجهما. وذات يوم، طلب الكاتب منه أن يزيل الثلج من السطح. صعد اليوشا إلى السطح، وأزال كل الثلج؛ وبينما كان ما يزال يزيح بعض كتل الثلج من المزراب، انزلقت قدمه وسقط. لسوء حظه لم يسقط على الثلج، بل سقط على قطعة حديد على الباب. جرت يوستينيا إليه، مع ابنة التاجر.

"هل أصبت، يا اليوشا؟"

"آه! لا، لاشيء".

لكنه لم يستطع أن يرفع نفسه كلما حاول، وبدأ في الابتسام.

أدخلوه إلى الكوخ. وصل الطبيب، وفحصه، وسأله عن مكان الألم.

"أشعر أنه في كل جسمي"، قال. "لكن لا يهم. أخشى فحسب أن يتضايق سيدي. ولابد أن تخبروا أبي".

رقد اليوشا يومين في السرير، وفي اليوم الثالث أرسلوا إلى القس.

سألته يوستينيا: "هل حقًّا ستموت؟"

"بالطبع سأموت. فلا يمكن أن نعيش إلى الأبد. فلابد أن نرحل عندما يحين الوقت". تكلم اليوشا بسرعة كعادته. "شكرًا، يوستينيا. لقد كنت طيبة معي. كم هو حظ سعيد أنهم لم يسمحوا لنا بالزواج! فماذا كان سيحدث لنا الآن؟ إنه أفضل الآن".

حين جاء القس، صلى مع فرقته وبقلبه. "مثلما كان جيدًا أن تطيع هنا ولا تؤذي أحدًا، فسيكون ذلك كذلك هناك"، كانت تلك الفكرة الرئيسية.

تحدث قليلاً جدًّا؛ فقط قال إنه عطشان، وبدا أنه مندهشٌ من شيءٍ ما.

رقد مندهشًا، ثم تمدد، ومات.

بَعد الرقصَــة

"وـ كما تقولـ فلا يستطيع الإنسان فهم الخير والشر بنفسه؛ فالبيئة هي الأساس، فالبيئة هي التي تُشكل الإنسان. لكنني أعتقد أنها كلها احتمالات. خذ حالتي على سبيل المثال.."

هكذا تحدث صديقنا المتميز، إيڤان ڤازيليڤيتش، بعد حوارنا عن استحالة تحسين شخصية الفرد بمعزل عن تغيير الظروف المحيطة به. ولا أحد في الحقيقة قال إن المرء لا يمكنه إدراك الخير والشر بنفسه؛ لكنها كانت عادة إيڤان ڤازيليڤيتش، أن يقوم بالردـ بهذه الطريقةـ على الأسئلة التي تطرأ على باله عن طريق الحوار، وتصوير تلك الأفكار من خلال الأحداث المتعلقة بها في حياته الشخصية. وغالبًا ما ينسى تمامًا سبب استشهاده بهذه القصة؛ لكنه كان دائمًا ما يحكيها بإحساس وإخلاص مرهفين.

وقد فعل ذلك الآن:

"خذ حالتي على سبيل المثال. لقد تشكلت حياتي بطريقة أو بأخرى، لا بفعل البيئة".

"كيف تشكلت، إذن؟" سألناه.

"آه، إنها قصة طويلة. ويجب أن أخبركم عن أشياء كثيرة عظيمة لتتمكنوا من الفهم".

"حسنًا، أخبرنا إذن".

فكر إيڤان ڤازيليڤيتش قليلاً، وهز رأسه.

"لقد تغيرت حياتي كلها بين عشية وضحاها"، قال.

"لماذا؟ ماذا حدث؟" سأله أحدنا.

"ما حدث هو أني وقعت بقوة في الحب. لقد وقعت في الحب مرات كثيرة، لكن هذه المرة كانت الأكثر جدية. إنه شيء من الماضي؛ والآن لديها بنات متزوجات. كانت ڤارينكا بـــــ". وذكر إيڤان ڤازيليڤيتش اسمها الأول. "حتى عندما بلغت الخمسين كانت بالغة الأناقة؛ لكنها في شبابها- في عمر الثامنة عشرة- كانت رائعة الطول، ممشوقة القوام، فاتنة، وذات إطلالة مهيبة. نعم مهيبة، هي الكلمة المناسبة؛ كانت شامخة، بحكم الغريزة؛ وتحتفظ برأسها سامقة، وذلك بالإضافة إلى جمالها وسموقها كان يضفي عليها سيماء الملكات، بالرغم من نحافتها، وبالرغم من أن أحدًا يمكن أن يصفها بأنها بارزة العظام. وكان يمكن لذلك أن يكون عائقًا لولا ابتسامتها، التي كانت دائمًا مبهتجة ودودة،

والألق الساحر في عينيها، وعذوبة شبابها.

"يا له من وصف خلاب يا إيڤان ڤازيليڤيتش".

"وصف، حقًا! ربما لا أستطيع وصفها للدرجة التي تمكنكم من الوصول إلى حقيقة جمالها. لكن هذا لا يهم؛ وما سأحكيه حدث في الأربعينات. حينها كنت طالبًا في جامعة إقليمية. ولا أعرف ما حدث إن كان جيدًا أم سيئًا، لكن لم يكن لدينا نوادٍ سياسية ولا نظريات في جامعاتنا وقتها. كنا ببساطة شبانًا، ونقضى أوقاتنا كما يقضي الشبان أوقاتهم، ندرس ونسلي أنفسنا. كنت شابًا مرحًا للغاية مفعمًا بالحيوية واللامبالاة، ولديَّ الكثير من المال أيضًا. وكنت أمتلك حصانًا قويًا، واعتدت أن أخرج مع الفتيات. لم يكن التزلج قد تحول بعد إلى موضة. فكنت أذهب إلى حفلات الشرب مع رفاقي- لم نكن نشرب سوى الشمبانيا- وإذا لم نجدها لا نشرب شيئًا على الإطلاق. لم نشرب قط الڤودكا، كما يفعلون الآن. وحفلات الشرب وحفلات الرقص المسائية كانت تسليتي المفضلة. كنت أرقص جيدًا ولم أكن رفيقًا قبيحًا".

"كفى، لا داع للتواضع"، قاطعته سيدة بجواره. "لقد شاهدنا صورتك. لم تكن قبيحًا، حقًا! لقد كنت رفيقًا وسيمًا".

"وسيم، كما تحبون. هذا ليست له أهمية. فعندما كان حبي لها في أوجه، وكان اليوم الأخير من المهرجان، كنتُ في حفل راقص لدى مارشال المقاطعة، وهو رجل عجوز طيب، ثري وكريم، وموظف كبير في البلاط. كانت زوجته ترحب بالضيوف، كانت طيبة مثله. ترتدي قطيفة حمراء داكنة اللون، وثمة تاج من الماس على جبينها، وأكتافها

العجوز السمينة البيضاء وثدياها كانوا عرايا مثل صور الإمبراطورة إليزابيث، ابنة بيتر العظيم.

"كان حفلاً راقصًا بهيجًا. والحجرة رائعة مع عرض للفرقة الموسيقية المشهورة في ذلك الحين، وتتشكل من أقنان ينتمون إلى أحد ملاك الأراضي الموسيقيين. كانت الفقرات خيالية، والشمبانيا تفيض كالأنهار. وبالرغم من ولعي بالشمبانيا إلا أنني لم أشرب تلك الليلة، لأنني كنت بدونها قد سكرت من الحب. عوضت ذلك برقصات الڤالس والبولكا إلى أن كنت على أهبة الاستعداد للسقوط ـ بالطبع ـ مع ڤارينكا، حينما يكون ذلك ممكنًا. كانت ترتدي فستانًا أبيض بوشاح وردي، وحذاء أبيض، وقفازات صغيرة بيضاء، لم تصل إلى كوعها النحيف. سرقها مني مهندس مقزز اسمه أنيسيموڤ في رقصة مازوركا* ـ لا أنسى له هذا الموقف حتى اليوم. طلبها للرقص لحظة وصولها، حينما كنت في طريقي إلى الحلاق لأحضر قفازًا وتأخرت. ولهذا فلم أرقص المازوركا معها، لكن مع فتاة ألمانية كانت قد لفتت انتباهي قليلاً من قبل؛ لكنني أخشى أنني لم أحسن التصرف معها تلك الليلة. كنت نادرًا ما أحادثها أو أنظر إليها، ولم أكن أرى شيئًا سوى ذلك القوام الطويل النحيل، في فستان أبيض، مع وشاح وردي، ووجه ذي غمازات، مشرق، ونضر، وعينين عذبتين طيبتين. لم أكن الوحيد؛ كانوا جميعًا ينظرون إليها بإعجاب، الرجال والنساء على السواء، رغم أنها كانت قد تفوقت

* مازوركا: رقصة بولندية، نشأت في الريف البولندي في القرن الـ16.. ثم أخذت طريقها إلى القصر الملكي، نظرًا لما تمتعت به من شعبية كبيرة، وقد دخلت في أعمال كلاسيكية لمؤلفين موسيقيين، مثل شوبان وغيره.

عليهم كلهم. لم يستطيعوا مقاومة الإعجاب بها.

"وعلى الرغم من أنني لم أكن معنيًّا بالاسم لمرافقتها في رقصة "المازوركا"، إلا أنني- في الواقع- كنت أرقص طوال الوقت تقريبًا معها. كانت دائمًا ما تتقدم إلى الأمام بجرأة- بطول الغرفة- لتأخذني. وكنت أطير لمقابلتها دون انتظار لاختيارها لي، فتشكرني بابتسامة على مبادأتي. وعندما كان يأخذها آخر للرقص عن طريق خطئها في التقدير، كانت تأخذ بيد الرجل مع هزة استنكار من كتفيها النحيفتين، وتبتسم لي بندم.

"وقتما يظهر الڤالس في رقصة المازوركا، كنت أرقص معها لفترات طويلة، أتنفس بسرعة وأبتسم، فربما تقول "Encore مرةً أخرى"؛ وأستمر في رقص الڤالس كأني غير واع بأي وجود جسدي.

"كفى، فكيف تكون بدون وعي وذراعاك حول خصرها؟ من المؤكد أنك كنت واعيًا، ليس فقط لوجودك، بل لوجودها أيضًا"، قالها أحد الحاضرين.

صاح إيڤان ڤازيليڤيتش، بل صرخ تقريبًا في غضب: "هكذا أنتم، حداثيون تمامًا! وهذه الأيام لا تفكرون في شيء سوى الجسد. كان الأمر مختلفًا على أيامنا. فكلما غرقتُ في الحب كانت أقل جسدانيةً في عيني. هذه الأيام تعرضون السيقان والكعوب، وما لا أدري. تُعرون النساء اللواتي تعشقونهن. وبالنسبة لي- كما قال الفونس كار*- وقد كان كاتبًا

* الفونس كار: كاتب وناقد وروائى فرنسي (24 نوفمبر 1808- 29 سبتمبر 1890). أول قصصه هي قصة "مجدولين" التي ترجمها بتصرف كبير إلى العربية الراحل المنفلوطي. وله مؤلفات أخرى مثل "الطريق الأقصر". أسس "كار" مجلة

مُجيدًا: المرأة التي أحببتها كانت ملفوفةً دائمًا بأثواب من البرونز". ولم نفكر نحن أبدًا في فعل ذلك؛ لقد حاولنا تغطية عريها مثل ما فعل ابن نوح الطيب. آه، حسنًا، لن يمكنكم أن تفهموا".

"لا تُعره انتباهًا. استمر". قال أحدهم.

"حسنًا، رقصتُ معظم الوقت معها، ولم ألحظ كيف مضى الوقت. استمر العازفون في عزف نفس المازوركا مرات عديدة في إنهاك بالغ- فتعرف أن الحفل قارب على الانتهاء. كان الآباء والأمهات قد نهضوا فعلاً عن طاولات لعب الورق في حجرة الاستقبال، في انتظار العشاء، والخدم يسرعون هنا وهناك لإحضار الأشياء. كانت الثالثة تقريبًا. وكان يجب أن أفعل الحد الأقصى في الدقيقة الأخيرة. اخترتها مرةً ثانيةً للمازوركا، ولمئات المرات رقصنا عبر الحجرة.

"الرقصة الرباعية بعد العشاء معي"، قلت وأنا أصحبها إلى مكانها.

"بالطبع، إذا لم أُحمل إلى البيت"، قالت بابتسامة.

"لن أدعك تذهبين"، قلت.

"أعطني مروحتي، على أية حال"، أجابت.

"آسفٌ للغاية على افتراقنا"، قلت، وأنا أسلمها مروحتها البيضاء الرخيصة.

"حسنًا، ها هو شيءٌ ما ليواسيك"، قالت، وهى تنتزع ريشة من

ساخرة بعنوان "الدبابير"، صدرت بين عامى (1839- 1876)؛ المترجمة.

المروحة، لتعطيها لي.

"أخذت الريشة، ولم أستطع سوى التعبير عن غبطتي وامتناني بعيني. كنت سعيدًا ومبتهجًا للغاية؛ كنت في حالة جيدة، لم أكن أنا، بل كنت مخلوقًا ليس من هذه الأرض، لا يعرف شيئًا عن الشر. خبأتُ الريشة في قفازي، وقفت هناك لا أحتمل فراقي لها.

"انظر، إنهم يحاولون إقناع أبي أن يرقص"، قالت لي، وهي تشير إلى تلك القامة الطويلة المنتصبة لأبيها، وهو كولونيل بكتافات ذهبية، كان واقفًا عند المدخل مع بعض السيدات.

"تعالَي إلى هنا، ڤارينكا!" نادتها بصوت عال مضيفتنا، السيدة ذات التاج الماسي والأكتاف التي تشبه أكتاف اليزابيث.

اتجهت ڤارينكا إلى الباب، وتبعتها.

"أقنعي والدك برقص المازوركا معك، يا عزيزتي- من فضلك، يا بيتر ڤالديزاڤوڤيتش"، قالت، والتفتت ناحية الكولونيل.

"كان والد ڤارينكا أنيقًا للغاية، ورجلاً عجوزًا متحفظًا للغاية. له لون لطيف، مع شارب ينحني لأعلى على طريقة نيكولا الأول، وسوالف بيضاء كانت تلتقي بالشارب. كان شعره ينزل على جبينه. وثمة ابتسامة- تشبه ابتسامة ابنته- على شفتيه وعينيه. كان له حضور رائع، بصدر عريض عسكري، كان يضع عليه بعض الأوسمة، وكتفين قويتين وساقين طويلتين نحيلتين. كان نموذجًا لذلك النمط العسكري الرفيع الذي أنتجه نظام الإمبراطور نيكولا الأول.

"عندما وصلنا إلى الباب كان الكولونيل ما يزال يرفض الرقص، قائلاً إنه نسي تمامًا كيف يرقص، لكنه ابتسم في تلك اللحظة، وأرجح ذراعه برشاقة إلى الشمال، سحب سيفه من غمده، وأسلمه إلى شاب ظريف يقف بجواره، وربت على قفازه الجلدي في يده اليمنى.

"ينبغي أن يسير كل شيء وفقًا للقواعد"، قال مبتسمًا. أخذ يد ابنته ووقف على بعد أربع خطوات، منتظرًا الموسيقى.

"مع الصوت الأول للمازوركا، خبط برشاقة قدمًا واحدة، وتقدم بالأخرى إلى الأمام، بنعومة وبطء في البداية، ثم بخفة وسرعةً، مستمرًا في الخبط بقدميه مع النقر بحذائه، وجالت قامته الطويلة المهيبة على امتداد الحجرة. تمايلت ڤارينكا برشاقة بجواره، بسهولة وبصورة إيقاعية، متحكمة في خطوتها القصيرة والطويلة، بقدميها الصغيرتين في الحذاء الستان الأبيض.

تابع كل من في الحجرة كل حركة للثنائي. وبالنسبة لي، فلم أتابعهما بإعجاب فحسب، بل كنت أنظر إليهما بمودة مبتهجة. كنت مبهورًا ـ بصورة خاصة ـ بحذاء الرجل العجوز. لم يكن على الموضة، بل كان مصنوعًا من جلد رخيص، ومقدمة مربعة، وصنعه اسكافي محلي. ولكي تخرج ابنته في كامل زينتها للمجتمع، لم يشتر حذاء يساير الموضة، بل كان يرتدي أشياء مصنوعة في المنزل، على ما أظن، وكان أكثر ما أثَّر فيَّ مقدمة حذائه المربعة. كان من الواضح أنه كان راقصًا ماهرا في شبابه؛ لكنه الآن أصبح ثقيلاً جدًا، ولم تعد قدماه تقفزان بما يتوافق مع جميع الخطوات الجميلة التي يحاول أن يتخذها. ومع ذلك، فقد تعمد أن يجول

بالحجرة دورتين. وفي النهاية، وفيما كان يقف منفرج الساقين، ضرب بقدميه معًا، وسقط على ركبة واحدة، بثقل إلى حدٍّ ما، ورقصت هي برشاقة حوله، وهي تبتسم وتُعدل من تنورتها، وصفق كل مَن في الحجرة.

وإذ نهض بعناءٍ ما، أخذ بوجه ابنته بكل حنان بين يديه. قبلها على جبينها، وأحضرها لي، وهو يظن أني كنت رفيقها في رقصة المازوركا. قلت إنني لم أكن كذلك. "حسنًا، لا بأس، فلتأخذها دورة واحدة فقط باتساع الحجرة"، قال بابتسامة لطيفة، وهو يعيد وضع سيفه في الغمد.

"مثلما يتدفق السائل من تلقاء ذاته عندما تُصب أول قطرة، كذلك كان حبي لڤارينكا يبدو وكأنه يطلق بداخلي قوى الحب الشاملة. فعندما أحيط خصرها بيدي أعانق العالم. لقد أحببت مضيفتنا بتاجها وكتفها التي تشبه كتف إليزابيث، وزوجها وضيوفها والخدم، حتى المهندس أنيسيموف الذي أحسست أنه كان مشاكسًا معي. وبالنسبة لوالد ڤارينكا، وحذائه المصنوع منزليًا وابتسامته الطيبة، التي تشبه ابتسامة ابنته، فقد شعرت بنوع ما من الحنان تجاهه كان يقترب من الغبطة.

"بعد العشاء، رقصتُ الرباعية الموعودة معها، وكنت أظن أنني كنت سعيدًا من قبل إلى ما لا نهاية، لكنني كنت أكثر سعادة من ذى قبل مع كل لحظة.

"لم نتحدث عن الحب. لم أسأل نفسي ولم أسألها ما إذا كانت تحبني. كان كافيًا لي تمامًا أنني أحبها. ولم ينتبني سوى خوف وحيد- أن يأتي شيءٌ ما يقطع فرحتي الكبرى.

"بعد عودتي إلى المنزل، بدأت في تغيير ملابسي للمساء، ووجدت أن ذلك خارج الموضوع. أمسكت بالريشة الصغيرة من مروحتها في يدي، وأحد قفازيها الذي أعطته لي عندما ساعدتها لدخول عربتها بعد والدتها. وأنا أنظر إلى تلك الأشياء، ودون أن أغمض عينَي، كان يمكنني أن أراها أمامي مثلما كانت للحظة، عندما كان عليها أن تختار بين رفيقين للرقص. حاولَت أن تخمن نوع الشخصية التي كنتها أمامها، وأستطيع سماع صوتها العذب عندما قالت: "مغرور- هل أنا على حق؟" وبمرح أعطتني يدها. في العشاء أخذت أول رشفة من كأس الشمبانيا الخاص بي، وهي تنظر إليَّ من فوق حافة الكأس بنظرة مداعبة. لكني- بصورة أوضح من ذي قبل- كان يمكنني أن أراها وهي ترقص برفقة أبيها، وهي تنساب بجانبه، وأنظر إلى المراقبين المعجبين بكبرياء وسعادة.

"توحدا- هي وأبوها- في ذهني في دفقة حنان عاطفية.

"كنت أعيش آنذاك مع أخي، الذي توفي بعد ذلك. كان يكره الخروج، ولم يذهب للرقص قط؛ وفضلاً عن ذلك، فقد كان مشغولاً بالاستعداد لامتحانات السنة النهائية في الجامعة، وكان يعيش حياةً بالغة الانتظام. كان نائمًا. نظرت إليه، ورأسه مدفونة في وسادته وشبه مغطاة باللحاف؛ وأشفقت عليه بصورة محبة، أشفقتُ عليه لتجاهله النعمة التي كنت أعيشها. قابلني القِن بتروشا وفي يده شمعة، متأهبًا لتغيير ملابسي، لكني صرفته. أثَّر فِيَّ وجهه النائم وشعره الأشعث. ومع محاولتي لعدم إصدار ضوضاء، ذهبتُ إلى غرفتي على أطراف أصابعي، وجلست على سريري. لا، لقد كنت بالغ السعادة؛ ولم يكن بمقدوري النوم. فضلاً عن ذلك، فقد كانت الغرف شديدة الحرارة. وبدون أن أخلع ملابسي،

ذهبت بهدوء إلى الصالة، ارتديت معطفي، وفتحت الباب الأمامي، وخرجت إلى الشارع.

"كانت ما بعد الرابعة عندما غادرت الحفل؛ واستغرق ذهابي إلى المنزل وتوقفي هناك ساعتين، وبحساب الوقت فقد كان الفجر عندما خرجت. كان طقس احتفال عادي- ضبابيًّا، والطريق مليء بالماء- الثلج المنقوع الذائب لتوه، والماء المتساقط من الأفاريز. كانت عائلة ڤارينكا تسكن في حافة المدينة، بجوار حقل كبير، أحد أجنابه ساحة للاستعراضات: وفي الجنب الآخر مدرسة داخلية للفتيات. مررت بشارعنا الصغير الفا رغ إلى الشارع الرئيسي، حيث قابلت المشاة والزلاجات محملة بالأخشاب، والعداءون يملأون الطريق. الخيول تخطو بانتظام تحت لجامها اللامع، وظهورها مغطاة بحصير من القش، ورؤوسها مبتلة من المطر؛ والسائقون- بأحذيتهم الضخمة- يخوضون في الطين بجانب الزلاجات. كل هذا، بما فيه الخيول، كان يبدو أنه محفزًا وفاتنًا، مفعمًا بالإيحاء.

"عندما وصلت إلى الحقل بجوار منزلهم، رأيت في أحد أطرافه- فى اتجاه ساحة الاستعراضات- شيء أسود بالغ الضخامة، وسمعت أصوات مزامير وطبول تصدر منه. كان قلبي مفعمًا بالغناء، وتخيلت أني سمعت نغمة المازوركا، لكن تلك كانت موسيقى فظة. لم تكن مبهجة أبدًا.

"ماذا قد يكون هذا؟" فكرت، وسرتُ نحو الصوت عبر ممر زلق خلال منتصف الحقل. مشيت نحو مائة خطوة، وبدأت في تمييز العديد من الأجسام السوداء وسط الضباب . كان من الواضح أنهم جنود. "ربما

يكون موقع تنقيب"، فكرت.

"هكذا سرتُ قُدمًا في ذلك الاتجاه بصحبة حداد، كان يرتدي معطفًا متسخًا ومريلة، ويحمل شيئًا ما. سار أمامي حين وصلنا إلى المكان. كان الجنود ذوو الملابس السوداء يقفون في صفين، متواجهين، بلا حركة، وبنادقهم ساكنة. وراءهم، كانت المزامير والطبول، وهي تكرر بانتظام نفس النغمات غير المبهجة.

"ماذا يفعلون؟" سألت الحداد، الذي يقف بجواري.

"هناك أحد التارتار* يتم ضربه بين الصفوف لمحاولته الهروب من التجنيد"، قال الحداد بنبرة غاضبة، وهو ينظر باهتمام إلى الطرف الأقصى لذلك الصف.

"نظرتُ في نفس الاتجاه، وبين الصفوف رأيت شيئًا مريعًا يقترب مني. كان ذلك الشيء المقترب رجلاً، مجردًا من ملابسه حتى خاصرته، مقيدًا بالحبال إلى بنادق جنديين يقودانه. وبجانبه يسير ضابط بمعطف وقبعة، وكان لهيئته سيماء مألوفة. كان الضحية يتقدم تحت الضربات التي تهاطلت عليه من الجانبين، وجسده كله مبلول، وقدماه تتجرجران في الثلج. أطاح بنفسه إلى الخلف، فشده الأتباع الذين يقودونه إلى الأمام. سقط إلى الأمام، فرفعوه لمسافة قصيرة؛ فيما كان يسير بجواره دائمًا الضابط الطويل، بخطوة حازمة وعصبية. إنه والد ڤارينكا، بوجهه الوردي وشاربه الأبيض.

* التارتار: أبناء قبيلة مستقرة في أجزاء من أوروبا وغرب ووسط روسيا.

"مع كل ضربة، كان الرجل يدير وجهه، كأنه قد اندهش، وهو يكشر بالألم، في الاتجاه الذي جاءته منه الضربة، وفيما يظهر أسنانه البيضاء يكرر نفس الكلمات مرارًا. لكنني لم أكن لأستطيع أن أسمع الكلمات بوضوح إلا حينما اقترب تمامًا. لم يكن يتحدث إليهم، بل كان ينتحب إليهم- "ارحموني، يا إخواني! ارحموني، يا إخواني!" لكن الأخوة لم يكن لديهم رحمة، وحين اقترب الموكب مني، رأيت كيف أن جنديًا- كان يقف أمامي- قام بخطوة حازمة إلى الأمام، ورفع عصاه مع الطنين، ونزل بها على ظهر الرجل. غاص الرجل إلى الأمام، لكن الأتباع جذبوه إلى الخلف، ونزلت ضربة أخرى من الجانب الآخر، ثم من هذه الناحية وبعدها من الناحية الأخرى. كان الكولونيل يسير بجواره، وهو ينظر إلى قدميه ثم إلى الرجل، يستنشق الهواء، وينفخ خديه، ثم يخرجه عبر شفتيه البارزتين. وعندما مروا على المكان الذي أقف فيه، لمحت بين الطفين ظهر الرجل المعاقب. كان متعدد الألوان، مبتلاً، مُحمرًا، غير طبيعي، لدرجة أني لا أكاد أصدق أنه جسد إنسان.

"يا إلهي!" تمتم الحداد.

ابتعدت المسيرة. وتواصلت الضربات في التساقط على الكائن المتلوي، خائر القُوى؛ احتد صوت المزامير وقرع الطبول، والهيئة الفارعة المهيبة للكولونيل تتحرك بجوار الرجل، كما من قبل.

"ثم، فجأةً، توقف الكولونيل، واقترب بسرعة من رجل وسط الصفوف.

"سأعلمك كيف تضربه بلطف"، سمعت صوته الغاضب. "هل

ستربت عليه هكذا؟ هل ستفعل ذلك؟" ورأيت كيف أن يده القوية- في القفاز الجلدي- ضربت الجندي الضعيف، المرعوب، الذي هرب دمه، لأنه لم ينزل بعصاه بالقوة المطلوبة على رقبة التارتار الحمراء.

"أحضر لي عصيًا جديدة!" صاح، وهو يتلفت حوله، ورآني. متخذًا سيماء عدم معرفتي، وبتقطيبة غاضبة عابسة، استدار بعيدًا. شعرت بالخجل الشديد لدرجة أنني لم أعرف إلى أين أنظر. كنت كما لو أنني قد ضُبطت بفعل فاضح. أغمضتُ عينَيَّ، وأسرعت إلى المنزل. وطوال الطريق، كانت الطبول تُقرع والمزامير تصفر في أذني. وكنت أسمع كلمات: "إخواني، ارحموني!" أو "هل ستربت عليه هكذا؟ هل تفعل ذلك؟" كان قلبي مفعمًا بالاشمئزاز الجسدي الذي وصل تقريبًا إلى درجة الغثيان، إلى حد أني توقفتُ عدة مرات في طريقي، لإحساسي بأني سوف أتقيأ فعلاً من كل المناظر المرعبة التي تملكتنى تلك الليلة. ولا أتذكر كيف وصلت إلى المنزل، وكيف وصلت للسرير.

لكني عندما أوشكت على النوم، سمعت ورأيت- مرةً ثانية- كل ما حدث، فقفزت.

"من الواضح أنه يعرف شيئًا لا أعرفه"، فكرت في الكولونيل. "لو أني عرفت ما يعرفه، لفهمت بالتأكيد- لاستوعبت ما رأيته لتوي، ولما سبب لي كل هذا الألم.

"لكني كلما فكرت في الأمر أكثر، لم أستطع فهم ذلك الشيء الذي يعرفه الكولونيل. وكان المساء حين استطعت النوم، وفقط بعد مكالمة صديق، وبعد أن شربت حتى أنني.. سكرتُ تمامًا.

"فهل تعتقدون أنني قد توصلت إلى نتيجة أن الفعل الذي رأيته كان شريرًا؟ آه، لا. فطالما أنه قد ارتُكب بكل هذا التأكيد، ويدركه الكل باعتباره لا غنى عنه، فلا شك أنهم يعرفون شيئًا ما لم أكن أعرفه. ولذلك فكرت، وحاولت أن افهم. لكن لا يهم، فلن أستطيع أبدًا فهم ذلك، الآن أو فيما بعد. ولأنني عجزت عن إدراكه، فلم يمكنني دخول الخدمة كما كنت أنتوي. لا أقصد فقط الخدمة العسكرية: بل لم أدخل **الخدمة المدنية** أيضًا. وهكذا أصبحت بلا فائدة من أي نوع، كما يمكن أن تروا".

"نعم، فنحن نعرف إلى مدًى أنت بلا فائدة"، قال أحدنا. "أخبرنا إذن، كم من الناس- على وجه الإطلاق- لهم فائدة، لو لم تكن لديك فائدة؟"

"آه، هذا هراء مطلق"، قال إيڤان ڤازيليڤيتش، بضيق بالغ.

"حسنًا؛ وماذا عن علاقة الحب؟"

"حبي؟ لقد تلاشى منذ ذلك اليوم. لكنها عندما تأتي كحلم وفي حالات التأمل- وهو ما كان يحدث كثيرًا- كنت أتذكر في الحال صورة الكولونيل في ساحة الاستعراضات، وأشعر بحرج وقلق شديدين، حتى بدأت أراها مرات أقل. هذا وصل حبي إلى الصفر. نعم؛ تنبثق مثل هذه الفرص، وتُغير حياة الإنسان كلها وتوجهها"، قال بتلخيص. "وكما تقولون..."

القيصَـر الشَّـاب

اعتلى القيصر الشاب العرش لتوه. وعلى مدى خمسة أسابيع، لم يتوقف عن العمل، شأن ما اعتاد عليه القياصرة. كان يستمع إلى التقارير، يوقع الأوراق، يستقبل السفراء، وكبار موظفي الدولة الذين أتوا ليقدموا له أنفسهم، ويستعرض القوَّات. كان متعبًا، وكمسافر أرهقه الحر والعطش، يهفو إلى قطرة ماء وبعض الراحة، هكذا كان يهفو لراحة- ولو ليوم واحد على الأقل- من حفلات الاستقبال، والخطَب، والاستعراضات- بضع ساعات حُرة يقضيها كشخص عادي مع زوجته الشابة، الجميلة، التي تزوجها منذ شهر واحد، لا غير.

كانت ليلة رأس السنة. ورتب القيصر الشاب ليأخذ راحة كاملة تلك الليلة. فقد عمل الليلة السابقة حتى وقت متأخر، يفحص الوثائق التي تركها لها وزراؤه. حضر القُداس في الصباح، وبعد ذلك ذهب إلى مقر

الجيش. بعد الظهيرة، استقبل زوارًا رسميين؛ وفيما بعد كان مُضطرًّا للاستماع إلى تقارير ثلاثة من وزراء الدولة، وصدَّق على العديد من الأمور الهامة. في اجتماعه مع وزير المالية، وافق على الزيادة المفروضة على الضرائب على البضائع المستوردة، التي ستضيف في المستقبل الملايين إلى عائدات الدولة. ثم أجاز بيع الحكومة الامبراطورية للبراندي في أجزاء مختلفة من البلد، ووقَّع على مرسوم يسمح ببيع الكحول في القرى التي تمتلك أسواقًا. وهذا أيضًا أمر محسوب لزيادة العائد الأساسي للدولة، والذي كان مستمدًّا من بيع المشروبات الروحية. كما وافق أيضًا على إصدار ائتمان ذهبي جديد مطلوب للمفاوضات المالية. أما وزير العدل فأعد تقريرًا يتعلق بالقضية المعقدة لميراث البارون سنيدرز، وأقر القيصر القرار بتوقيعه؛ كما وافق أيضًا على القواعد الجديدة الخاص بتطبيق المادة 1830 من قانون العقوبات، لمعاقبة الصعاليك. وفي اجتماعه مع وزير الداخلية، صدَّق على الأمر المتعلق بجمع الضرائب المتأخرة، ووقع الأمر الذي يحدد مقاييس التعامل الواجب اتخاذها إزاء اضطهاد المنشقين الدينيين، وأيضًا أمرًا يتعلق باستمرارية قوانين الزواج السائدة في المقاطعات التي أنشئت حديثًا. ومع وزير الحرب، رتَّب تعيين قائد جديد للفيلق لترقية المجندين، وقانون لمعاقبة الخارجين عن النظام. وقد شغلته هذه الأمور حتى موعد العشاء، وحتى ذلك الحين فلم تكن حريته كاملة. فقد دُعي إلى العشاء عدد من كبار موظفي الدولة، وكان مضطرًّا للحديث إليهم: لا طبقًا للطريقة التي أحس أنها واجبة عليه، بل وفقًا لما توقعوا له أن يقول. وفي النهاية، انتهى العشاء الممل، وانصرف الضيوف.

أصدر القيصر الشاب تنهيدة ارتياح، تمطَّى، وانسحب إلى مسكنه ليخلع زيّه الرسمي بزينته، والجاكت الذي اعتاد على ارتدائه قبل اعتلائه العرش. انسحبت أيضًا زوجته الصغيرة لتخلع فستان العشاء، متذكرة أنها ستلحق به سريعًا.

حين مرَّ بصف الخدم الذين كانوا يقفون منتصبين لتحيته، ووصل إلى غرفته؛ عندما خلع رداءه الرسمي الثقيل، وارتدى سُترته، أحس القيصر الشاب بالسعادة للتحرر من العمل؛ وامتلأ قلبه مفعم بالعاطفة الرهيفة التي انبثقت من الوعي بحريته، بزوجته المرحة، القوية والشابة، وبحبه. ألقى بنفسه على الأريكة، مدد ساقيه عليها، اتكأ برأسه على يده، محدقًا في ظل الزجاج المعتم للمصباح، وآنئذٍ انتابه إحساس لم يشعر به منذ طفولته،ـ لذة الذهاب للنوم، ونعاس لا يُقاوم.

"زوجتي ستأتي حالاً وستجدني نائمًا. لا، لا يجب أن أنام"، فكر. ترك كوعه يسقط، ووضع خده في كفه، واتخذ وضعًا مريحًا، وكان في غاية السعادة التامة إلى حد الشعور بالرغبة فحسب في عدم تعكير صفو حالته البهيجة هذه.

وآنئذٍ، فما يحدث لنا كل يوم حدث لهـ فقد راح في النوم بدون أن يعرف أين ولا كيف. انتقل من حالة إلى أخرى بلا إرادة ومشاركة فيها، بل حتى بلا رغبة فيها، ولا ندم على الحالة التي وقعت له. راح في نوم ثقيل كان يشبه الموت. لم يعرف كم مكث نائمًا، لكنه استيقظ فجأةً بلمسة يد ناعمة على كتفه.

"إنها حبيبتي، نعم هي"، ظن ذلك. "أي أمر مخجل أن أغفو هكذا!".

لكنها لم تكن هي. أمام عينيه، المفتوحتين عن آخرهما والمبهورتين بالضوء، كانت- هي المخلوقة الجميلة الساحرة التي كان يتوقع مجيئها- ليست هي مَن كان يقف، لكنه هُو. هُو الذي لم يكن يعرفه القيصر الشاب، لكن لم يفاجئه أنه كان شخصًا غريبًا لم يره من قبل. بدا وكأنه يعرفه منذ فترة طويلة، وكان معجبًا به، ويثق به كما يثق بنفسه. كان ينتظر زوجته الحبيبة، لكن بدلاً منها كان هذا الرجل الذي لم يره أبدًا من قبل. ومع ذلك، فبالنسبة للقيصر الصغير- الذي كان بعيدًا عن الشعور بالدهشة أو الندم- لم يبد الأمر طبيعيًّا فحسب، بل أيضًا أمرًا ضروري الحدوث.

"تعال!"، قال الغريب.

"نعم، فلنذهب"، قال القيصر الشاب، دون أن يدري إلى أين، لكن بإدراك تام بأنه لا يملك سوى الخضوع لأمر الغريب. سأل: "لكن كيف سنذهب؟"

"في هذا الاتجاه".

وضع الغريب يده على رأس القيصر، وفقد القيصر وعيه للحظات. لم يعرف ما إذا كان فقد وعيه لفترة طويلة أم قصيرة، لكنه عندما استعاد وعيه وجد نفسه في مكان غريب. وأول ما أدركه في هذا المكان رائحة قوية وخانقة للمجاري. كان المكان الذي يقف فيه ممرًّا واسعًا مضاءً بوهج أحمر لمصباحين معتمين. وبطول الممر أحد جوانب الممر كان ثمة حائط سميك له نوافذ محمية بشبكة حديدية. ومن الناحية الأخرى أبواب مؤمنة بأقفال. وفي الممر، كان ثمة جندي واقف، يتكىء على الحائط،

نائمًا. خلال الأبواب، كان القيصر يسمع الصوت المكتوم لأشخاص كثيرين: لا لشخص واحد، بل لكثيرين. وكان **هو** واقفًا إلى جانب القيصر الشاب، ضاغطًا بخفة على كتف القيصر بيده الناعمة، ودفعه ناحية الباب الأول، لا مبال بالحارس. لم يجد القيصر بُدًّا من الاستسلام واقترب من الباب. أدهشه أن الحارس نظر إليه بشكل مباشر، لكنه من الواضح أنه لم يره، إذ أنه لم يعتدل ولا قام بتحيته، بل تثاءب بصوت عالٍ، وهو يرفع يده ويهرش قفاه. كان بالباب ثقبٌ صغير، واستجابة لضغط اليد التي كانت تدفعه، تقدم القيصر خطوةً ووضع عينه على على الثقب الصغير. لصق الباب، كانت الرائحة الكريهة التي خنقته أقوى، وتردد القيصر في التقدم أكثر، لكن اليد دفعته. انحنى إلى الأمام، ووضع عينه على الثقب، وفجأة لم يعد يشم الرائحة. فالمنظر الذي رآه قتل إحساسه بالرائحة. ففي حجرة واسعة، باتساع عشر ياردات طولاً وست ياردات عرضًا، كان ستة رجال في معاطف رمادية طويلة، بعضهم يرتدون أحذية وبعضهم حفاة، كانوا يمشون بلا توقف من أول الحجرة إلى آخرها. كان هناك أكثر من عشرين رجلاً في نفس الحجرة، لكن في تلك اللحظة الأولى لم ير القيصر سوى هؤلاء الذين كان يمشون بخطى سريعة، بل صامتة. كان منظرًا مرعبًا أن يرى الحركة السريعة المتواصلة بلا هدف للأشخاص، الذي كان كل منهم يلحق بالآخر، ويستدير بحدة حين يبلغ الحائط، دون أن ينظر أبدًا إلى أحد، وهو لا يفكر- فيما هو واضح- إلا في حاله هو.

كان القيصر الشاب قد لاحظ مثل هذا المشهد ذات يوم، حين كان يتفرج على نمر- في عرض للحيوانات- وهو يسير بسرعة بخطًى صامتة

من طرف إلى آخر في قفصه، ويهز ذيله، وفي صمت يستدير عندما يصل إلى القضبان، بلا نظر لأحد. كان من بين هؤلاء الرجال فلاح شاب فيما يبدو، بشعر مجعد، كان له أي يصبح وسيمًا لولا هذا الشحوب غير الطبيعي في وجهه، وتلك النظرة المتمعنة الخبيثة في عينيه، والإنسانية بالكاد. كان ثمة آخر، يهودي، كثيف الشعر وكئيب. والثالث كان عجوزًا أصلع نحيلاً، له لحية حليقة وإن نبتت بها بعض الشعيرات. والرابع ذو جسد ممتلئ، وعضلات قوية مفتولة، وجبهة صغيرة متقلصة وأنف مسطحة. والخامس يتجاوز عمره الصِّبَى بالكاد، طويل نحيل، ويبدو أنه مريض بالسل. أما السادس فقصير وأسمر، وحركاته عصبية متشنجة. كان يمشي كأنه يتقافز، ويغمغم لنفسه باستمرار. كانوا كلهم يتحركون بسرعة جيئةً وذهابًا مرورًا بالثقب الذي كان القيصر الشاب ينظر من خلاله. كان يرقب وجوههم ومشيتهم باهتمام عميق. وإذ تفحصهم عن كثب، أصبح الآن يعرف عددًا من الآخرين في آخر الحجرة، واقفين أو نائمين على الرف المستخدم كسرير. وإذ يقف ملاصقًا للباب، رأى أيضًا الدلو الذي تنبعث منه تلك النتانة غير المحتملة. على الرف كان هناك حوالي عشرة رجال، نائمين، مغطين تمامًا بمعاطفهم. وكان ثمة رجل ذو شعر أحمر ولحية كثة يجلس على حافة الرف، وقد خلع قميصه. كان يفتشه، ويرفعه ناحية الضوء، ويمسك ـ كما هو واضح ـ بالقمل منه. ورجل آخر، عجوز وأبيض البشرة كالجليد، كان يقف ووجهه ملتفت نحو الباب. كان يصلي، ويرسم الصليب على نفسه، وينحني، ويبدو مستغرقًا تمامًا في طقوسه إلى حد نسيانه كل ما حوله.

"فهمت ـ إنه سجن"، فكر القيصر الشاب. "إنهم بالتأكيد يستحقون الشفقة. يا لها من حياة فظيعة. لكن لا مفر منها. فذلك خطأهم".

لم تخطر بباله تلك الفكرة إلا قبل أن يجيبه عنها هو، الذي كان دليله.

"إنهم جميعًا هنا تحت الحراسة بأمرك. محكومٌ عليهم جميعًا باسمك. لكن بغض النظر عن استحقاقهم لحالتهم الراهنة، التي ترجع إلى حُكمك البشري، فإن معظمهم أفضل كثيرًا منك ومن قضاتهم الذين حكموا عليهم بالبقاء هنا. وهذا ـ مشيرًا إلى الشخص الوسيم، ذي الشعر المجعد ـ "هو قاتل. ولا اعتبره مذنبًا بأكثر من هؤلاء الذين يَقتلون في الحرب، أو في المبارزة، وتتم مكافأتهم بعد ذلك على عملهم. لم يكن يتمتع بالتعليم ولا الوازع الأخلاقي، وتشكلت حياته بين اللصوص والسكارى. وهذا يقلل من ذنبه، لكنه ارتكب الخطأ، مع ذلك، بكونه قاتلاً. لقد قتل تاجرًا ليسرقه. والرجل الآخر، اليهودي، لص، أحد أفراد عصابة لصوص. والشخص القوي فوق المألوف هو سارق خيول، ومذنبٌ أيضًا؛ لكنه ـ بالمقارنة بآخرين ـ يعتبر أقل ذنبًا. انظر!" ـ وفجأةً وجد القيصر الشاب نفسه في ساحة شاسعة على الحدود. إلى اليمين حقول البطاطس؛ تم اقتلاع جذور النباتات، وتجميعها في كومات، اسودت من الصقيع؛ في خطوط متبادلة كان ثمة صفوف من الذرة الشتوية. وفي مرمى النظر كانت هناك قرية صغيرة تُرى سطوحها القرميد؛ وإلى اليسار حقول من الذرة الشتوية، وحقول من القصب. وما من أحد يُرى في أي جانب، باستثناء هيئة إنسان سوداء أمام خط الحدود، تتدلى بندقية من على ظهره، وعند قدميه كلب. في البقعة التي كان يقف فيها القيصر الشاب، كان ثمة جندي روسي شاب، يجلس إلى

جواره، تقريبًا عند قدمه، بشارة خضراء على قبعته، وبندقيته معلقة على كتفيه، فيما كان يلف ورقة لعمل سيجارة. كان واضحًا أن الجندي لم يلحظ وجود القيصر الشاب ورفيقه، ولم يسمعهما. استدار الآن حول نفسه عندما سأل القيصر- الذي كان يقف مباشرة أعلى الجندي- "أين نحن؟" أجابه الدليل "على حدود بروسيا". وفجأةً، بعيدًا في الأمام، انطلقت رصاصة. قفز الجندي على قدميه، وإذ رأى رجلين يجريان، انحنى إلى الأرض، وسارع بوضع سيجارته في جيبه، وجرى خلف أحدهما. صرخ الجندي: "توقف، وإلا سأطلق الرصاص!". بدون أن يتوقف، أدار الهارب رأسه وصاح بكلمات كان من الواضح أنها مسيئة وبذيئة".

"ملعون!" صرخ الجندي، الذي كان قد تقدم خطوة وتوقف، وبعدها- محنيًا رأسه على البندقية، ورافعًا يده اليمنى- ضبط شيئًا ما بسرعة، وحدد الهدف، وصوب بندقيته تجاه الهارب، وربما أطلق النار، رغم أنه لم يُسمع أي صوت. "لا شك أنه بارود بلا دخان"، فكَّر القيصر الشاب؛ وإذ نظر إلى الشخص الهارب رآه يقوم ببضع خطوات راكضة، منحنيًا أكثر فأكثر، وسقط على الأرض، زاحفًا على يدية وركبتيه. في النهاية، ظل راقدًا ولم يتحرك. أما الهارب الآخر، الذي كان متقدمًا عليه، فاستدار وجرى عائدًا إلى الرجل الذي كان يستلقي على الأرض. قام بشيءٍ ما له، ثم واصل فراره.

سأل القيصر: "ماذا يعنى كل هذا؟"

"هؤلاء هم حرس الحدود، يطبقون بالقوة قوانين العائدات. فذلك

الرجل قُتل لحماية عائدات الدولة".

"هل قُتل فعلاً؟"

وضع الدليل يده مرةً أخرى على رأس القيصر الشاب، ومرةً أخرى فقد القيصر وعيه. وعندما استعاد حواسه وجد نفسه في حجرة صغيرة ـ الجمرك. مرتميةً على الأرض، كانت جثة رجل ذي لحية رمادية، وأنف معقوفة، وعينين كبيرتين مغمضتي الجفون. ذراعاه مرميتان بعيدًا، حافي القدمين، وأصابع قدميه الغليظة المتسخة ملتوية بزاوية قائمة ومتلاصقة بكاملها. كان به جرح بجنبه، وعلى سترته القماش المهلهلة، كما على قميصه الأزرق، بقع دم متخثر، وقد تحولت إلى الأسود عدا بعض البقع الحمراء في أماكن متفرقة. كان ثمة امرأة تقف ملاصقة للحائط، ملتفة في شيلان لدرجة أن وجهها كان مرئيًّا بالكاد. كانت تحملق بلا حراك في الأنف المعقوف، والقدمين المقلوبتين، والعينين الجاحظتين؛ وهي تبكي وتنتحب، وتجفف دموعها على فترات طويلة، منتظمة. وفتاة جميلة في الثالثة عشرة من عمرها كانت تقف إلى جانب أمها، وقد فتحت عينيها وفمها على اتساعهما. ويتشبث بتنورة الأم طفل في حوالي الثامنة، وينظر بإمعان إلى والده الميت بدون أن يرمش.

دخل من باب مجاور لهم: ضابط، موظف، طبيب، وعامل معه وثائق. دخل بعدهم الجندي، الذي أطلق النار على الرجل. كان يخطو بنشاط خلف رؤسائه، لكن في اللحظة التي رأى فيها الجثة شحُب وجهه فجأةً، وارتجف؛ وقف ساكنًا، مطأطئًا رأسه. عندما سأله الضابط عما إذا كان ذلك هو الرجل الذي حاول الهروب عبر الحدود، وهو الذي

أطلق عليه النار، لم يستطع الرد. ارتجفت شفتاه، والتوى وجهه. "نفس-س-س-س" بدأ، لكنه لم يستطع إخراج الكلمات التي كان يريد قولها. "نفس الشخص، فخامتك". نظر الموظفون إلى بعضهم البعض ودوّنوا شيئًا ما.

"ها أنت ترى النتائج المستفادة من نفس ذلك النظام!".

كان رجلان يجلسان- وهما يحتسيان النبيذ- في حجرة بالغة السوقية. كان أحدهما عجوزًا أشيب، والآخر كان يهوديًا شابًا. كان اليهودي يمسك في يده بلفافة من الأوراق النقدية، وهو يساوم العجوز. كان يشترى البضائع المهربة.

"أنت تحصل عليها بثمن زهيد"، قال، وهو يبتسم.

"نعم - لكن المخاطرة-"

"هذا مخيف فعلاً"، قال القيصر الشاب، "لكن لا سبيل إلى اجتنابه. فمثل هذه الإجراءات ضرورية".

لم يُبد رفيقه أي رد فعل، سوى أن قال: " فلنتحرك"، ووضع يده مرةً أخرى على رأس القيصر. عندما استعاد القيصر وعيه، كان يقف في حجرة صغيرة مضاءة بمصباح ظليل. كانت امرأة تجلس إلى طاولة الخياطة. وولد في الثامنة ينحني على الطاولة، ويرسم، وقدماه متقاطعتان تحته في المقعد. وكان هناك طالب يقرأ بصوت عال. دخل الأب والابنة إلى الحجرة ببعض الضجيج.

"لقد وقَّعتَ على الأمر المتعلق ببيع المشروبات الروحية"، قال الدليل

للقيصر.

"حقًّا؟" قالت المرأة.

"يبدو أنه لا يريد الحياة".

"ماذا به؟"

"لقد جعلوه سكرانًا طوال الوقت".

"لا يمكن!" تعجبت زوجته.

"هذا ما حدث. والولد عمره تسع سنوات فقط، فانيا موروشكين".

"وماذا فعلت لتحاول إنقاذه؟" سألت الزوجة.

"حاولت كل ما أستطيع فعله. أعطيته مقيئًا، ووضعت عليه ضمادة من الخردل. كان يعاني من جميع أعراض الهذيان".

"لا داع للعجب. فالعائلة كلها سكيرة. آنيسيا أفضل قليلاً من الباقين، وحتى هي فهي تسكر نوعًا ما"، قالت الابنة.

"وماذا عن مجتمعك المعتدل في شرب الخمر؟" سأل التلميذ أخته.

"ماذا يمكننا أن نفعل وهم يوفرون كل الفرص المتاحة للشرب؟ لقد حاول أبي أن يغلق خمارةً، لكن القانون كان ضده. وفضلاً عن ذلك، فحينما حاولت إقناع ڤاسيلي إيرميلين بأنه من المشين فتح خمارة وتدمير الناس بالشرب، أجابني بكل غطرسة وأفحمني أمام الجميع: "لكن عندي رخصة مختومة بخاتم النسر الامبراطوري. ولو كان هناك أي خطأ في عملي، لما أصدر القيصر مرسومًا بإجازته". أليس هذا مخيفًا؟ إن القرية

كلها مخمورة طوال الثلاثة أيام الأخيرة. وبالنسبة لأيام الأعياد- فمجرد التفكير فيها أمر مخيف ببساطة! لقد تم إثبات أن الكحول ليس جيدًا أبدًا، بل هو- بصورة ثابتة- ضار، وتبين أنه سُم مطلق. ثم إن 99 % من الجرائم حول العالم إنما تُرتكب تحت تأثيره. وكلنا يعرف أن مستوى الأخلاق والرفاهية العامة قد تحسن في الحال في البلدان التي قيدت الشرب- مثل السويد وفنلندا، ونعرف أنه يمكن تقييده من خلال ممارسة نفوذ معنوي على الجماهير. لكن في بلدنا، فإن الطبقة التي تستطيع ممارسة ذلك النفوذ- الحكومة، القيصر وموظفيه- يشجعون ببساطة على الشرب. فعائداتهم الأساسية تأتي من السُّكر المتواصل للشعب. وهم أنفسهم يشربون- يشربون دائمًا أنخابهم في صحة شخص ما: "السادة، والنظام!" والوعاظ يشربون، والأساقفة يشربون-"

مرةً أخرى، لمس الدليل رأس القيصر الشاب، الذى فقد وعيه مرةً أخرى. تلك المرة وجد نفسه في كوخ فلاح. كان الفلاح- وهو رجل في الأربعين، ذو وجه أحمر وعيون محتقنة- يصفع بجنون وجه رجل عجوز، كان يحاول عبثًا أن يتقي الضربات. أمسك الفلاح الأصغر بلحية الرجل العجوز وقبض عليها بشدة.

"يا للعار! أن تضرب أباك!"

"لا يهم، فسأقتله! فليرسلوني إلى سيبريا، لم أعد أهتم!"

كانت المرأة تصرخ. انطلق بعض المسؤولين السكارى إلى الكوخ وفرقوا بين الأب وابنه. كانت ذراع الأب مكسورة، ولحية الابن منتوفة. وعند الباب فتاة سكرانة تمارس الحب بعنف مع فلاح عجوز سكير

أيضًا.

"حيوانات!" قال القيصر الشاب.

لمسة أخرى من يد الدليل، وأفاق القيصر الشاب في مكان جديد. إنه مكتب عدالة السلام. نهض من مقعده رجل سمين، أصلع، ذو لغد وسلسلة في رقبته، وقرأ الحكم بصوت عال، بينما يقف حشد من الفلاحين خلف الحاجز. بين الحشد كان ثمة امرأة في ثياب بالية لم تقف. دفعها الحارس.

"نائمة! قلت لك قفي!" وقفت المرأة.

"بناءً على مرسوم صاحب الجلالة الإمبراطور"- بدأ القاضي في تلاوة الحكم. تتعلق القضية بنفس هذه المرأة. فقد أخذت نصف حزمة من الشوفان، وهي تمر بأرض أحد ملاك الأراضي. وقد حكمت عدالة السلام عليها بشهرين سجنًا. وبين الجمع كان يقف مالك الأرض المسروق منه الشوفان. عندما رفع القاضي الجلسة اقترب مالك الأرض، تصافحا، ودخل القاضي في حديث معه. والقضية التالية كانت تخص سماور- إناء شاي- مسروق. بعد ذلك كانت محاكمة مَن قطعوا الأخشاب ليلحقوا الضرر بمالك الأرض. وحوكم بعض الفلاحين لإهانتهم شرطي المقاطعة.

حين فقد القيصر الشاب وعيه مرةً ثانية، أفاق ووجد نفسه في منتصف قرية، حيث رأى أطفال جائعين، تقريبًا متجمدين، وزوجة الرجل الذي أهان الشرطي وهي في حالة إعياء من الإفراط في العمل.

ثم أتى مشهد جديد. في سيبيريا، صعلوك يُجلد بالسوط، كنتيجة مباشرة لأمر صادر من وزير العدل. نسيانٌ من جديد، ومشهد آخر. عائلة يهودي، صانع ساعات، مطرودة لفقرها المدقع. الأطفال يصرخون، واليهودي إسحاق في كرب عظيم. وفي النهاية توصلوا إلى ترتيب يسمح لهم بالبقاء في مسكنهم.

رئيس الشرطة يتقاضى الرشوة. وحاكم المقاطعة يقبل أيضًا الرشوة سرًّا. تُجمع الضرائب في القرية، بينما تُباع بقرة من أجل السداد، ومحقق الشرطة يتلقى رشوة من صاحب المصنع، الذى يتهرب بدوره من دفع الضرائب كلها. ومن جديد مشهد في محكمة القرية، وحكم واجب النفاذ- الجلد!

"هل يستطيع إيليا ڤازيليڤيتش أن يجنبني ذلك؟"

"لا".

انفجر الفلاح في البكاء. "حسنًا، لقد عانى المسيح، بالطبع، ووهب لنا المعاناة أيضًا".

ثم مشاهد أخرى. إحدى الطوائف المسيحية تتحطم وتتبعثر؛ رجال الكهنوت يرفضون في البداية الزواج، ثم دفن أحد البروتستانت. أوامر لتنفيذ الممر الخاص بالقطار الامبراطوري. يظل الجنود جالسين في برودة الطين، جائعين، يطلقون اللعنات.

مراسيم صادرة تتعلق بمعاهد الإمبراطورة ماري التعليمية. فساد منتشر في بيوت اللقطاء. نُصبٌ تذكاري بلا استحقاق. السرقة بين

الأساقفة. تعزيز البوليس السياسى. البحث عن سيدة. سجن للمحكوم عليهم بالإبعاد. شنق رجل بتهمة قتل مساعد تاجر.

نتيجة النظام العسكرى: جنود يرتدون الزي الرسمي ويسخرون منه. معسكر للغجر. ابنٌ لمليونير يُعفى من الخدمة العسكرية، بينما العائل الوحيد لعائلة كبيرة يجبر على أدائها. الجامعة: يُعفى مدرس من الخدمة العسكرية، فيما الموسيقيون الأعظم موهبة يُجبرون على أدائها. جنود وفجورهم- وانتشار المرض.

ثم جندي كان قد حاول الهرب. يحاكم. جندي آخر يُحاكم لأنه ضرب ضابطًا أهان والدته. حُكم عليه بالإعدام. آخرون- من جديد- محكوم عليهم نتيجة رفضهم إطلاق النار. والجندي الهارب تم إرساله إلى كتيبة عسكرية وجلده حتى الموت. وآخر، بلا ذنب، تم جلده ورش الملح على جراحه حتى الموت. أحد الضباط الكبار يسرق أموالاً تخص الجنود. ولا شيء سوى السُكر، والعربدة، والقمار، والغطرسة من طرف السُلطات.

تلك هى حالة الناس العامة: الأطفال يتضورون جوعًا وينحلون؛ البيوت ممتلئة بالقمل؛ دورة مملة لا تنتهي من العمل؛ من الخضوع، من الحزن. ومن ناحية أخرى: الوزراء، وحكام المقاطعات، طمّاعون، طموحون، ممتلئون بالغرور، وتواقون إلى بث الخوف.

"لكن أين هم الناس من ذوي المشاعر الإنسانية؟"

"سأريك أين هم".

"ها هي زنزانة امرأة في حبس انفرادي في شيلسبيرج. وهي في طريقها إلى الجنون. وها هي امرأة أخرى- فتاة متوعكة- اغتصبها الجنود. ورجل في المنفى، وحيدًا، يشعر بالمرارة، شبه ميت. سجن للمدانين بالأشغال الشاقة، والنساء يُجلدن. وهن كثيرات.

عشرات الآلاف من أفضل الناس. بعضهم مسجون، وآخرون مدمرون بسبب التعليم الزائف، بالرغبة العقيمة في تربيتهم كما نتمنى. لكن لا نفلح في هذا، أيًّا ما كان ما يتعرض للتدمير أيضًا، لأنه أصبح مستحيلاً. إنه كما لو كنا نحاول زراعة القمح من بذور الذرة، بقطع الكيزان. فيمكن للمرء أن يُفسد الذرة، لكن لا يمكن تحويله أبدًا إلى قمح. لهذا، فقد تم تدمير كل شباب العالم، كل الجيل الجديد.

لكن اللعنة على هؤلاء الذين يدمرون أحد هؤلاء الضعفاء، اللعنة عليك لو دمرت حتى واحدًا منهم. وعلى أية حال، فعلى عاتقك جموعٌ منهم، مَن تم تدميرهم باسمك، كل هؤلاء الذين يشملهم سلطانك.

"صاح القيصر في يأس: "ولكن ماذا عساي أن أفعل؟ فأنا لا أحب أن أعذِّب، أو أجلد، أو أفسد، أو أقتل أحدًا! إنني لا أريد لهم جميعًا سوى الرفاهية. مثلما أريد السعادة لنفسي، أريد للعالم أيضًا أن يكون سعيدًا. فهل أنا مسئول بالفع عن كل ما يرتكب باسمي؟ ماذا يمكنني أن أفعل؟ وماذا أنا فاعل لأخلص نفسي من تلك المسئولية؟ ماذا يمكنني أن أفعل؟ إنني لا أقر بأني أتحمل تلك المسئولية عن كل هذا. ولو أحسست بالمسئولية تجاه واحد في المائة مما يحدث، لأطلقت الرصاص على نفسي في الحال. لن أطيق الحياة لو كان هذا حقيقيًا. لكن كيف أضع نهاية

لذلك، لكل ذلك الشر؟ لقد تغلغل في كيان الدولة كله. وأنا رأس الدولة! فماذا أفعل؟ أأقتل نفسي؟ أم أتنحى؟ لكن ذلك يعنى التخلي عن واجبي. آه يا الهي، يا الهي، ساعدني!". انفجر في البكاء، واستيقظ.

"كم أنا سعيد أنه لم يكن سوى حلم"، كانت أول فكرة طرأت على باله. لكن عندما بدأ يتذكر ما شاهده في الحلم، وقارنه بالواقع، أدرك أن المشكلة المطروحة عليه في الحلم تظل مهمة وصعبة التحقيق الآن وهو مستيقظ. فلأول مرة يدرك القيصر الشاب حجم المسئولية الثقيلة الملقاة على عاتقه، وحل عليه الذهول. لم تعد أحلامه تدور حول الملكة الصغيرة والسعادة التي توقعها لتلك الليلة، بل تركزت على السؤال بلا إجابة، المعلق فوقه: "ما العمل؟"

في حالة اهتياج كبير، قام وذهب إلى الحجرة المجاورة. كان ثمة وصيف عجوز، زميل وصديق لوالده، يقف في منتصف الحجرة يحادث الملكة الصغيرة، التي كانت في طريقها لتلحق بزوجها. اقترب منها القيصر الشاب، ووجه كلامه مباشرةً إلى الوصيف، وأخبره بما رآه في الحلم، والشكوك التي خلفها في نفسه.

"هذه فكرة نبيلة. وهي تدل على النبل النادر لروحك"، قال الرجل العجوز. "لكنك- واغفر لي صراحتي- أطيب من أن تكون امبراطورًا، وأن تبالغ في مسئوليتك. أولاً، فحالة الأمور ليست كما تخيلت. فالناس ليسوا فقراء. إنهم أثرياء. وهؤلاء الفقراء هم كذلك نتيجة لخطئهم هُم. والمذنبون فقط هم مَن يعاقبون، وإذا ما حدث أحيانًا خطأ لا يمكن اجتنابه، فهو شبيه بالصاعقة- حادث غير مقصود، أو إرادة الرب.

فلديك مسئولية واحدة فقط: أن تنجز مهامك بشجاعة، وأن تحتفظ بالسلطة الممنوحة لك. إنك تتمنى الأفضل لشعبك والله شاهد على ذلك. أما بالنسبة للأخطاء التي ارتكبتها عن غير قصد، فيمكنك أن تصلي طالبًا المغفرة، وسيهديك الرب ويعفو عنك. وفضلاً عن ذلك، فلم ترتكب ما يستوجب الغفران، وليس هناك ولن يكون هناك أبدًا أناس يملكون قدرات فائقة مثلك ومثل أبيك. ولذلك، فكل ما نطلبه منك أن تبقى حيًّا، وأن تكافئ إخلاصنا وحبنا اللانهائيين بفضلك، وسيكون الجميع سعداء، إلا الأوغاد الذين لا يستحقون سعادة".

سأل القيصر الشاب زوجته: "ما رأيك في ذلك؟"

"لديَّ رأي مختلف"، قالت الزوجة الشابة الذكية، التي تربت في مجتمع متحرر. "مسرورةٌ أنا برؤيتك لذلك الحلم، وأتفق معك في أن على عاتقك مسؤليات جسامًا. وكثيرًا ما كنت أفكر فيها بقلق كبير، وأعتقد أن هناك طرقا بسيطة للتحرر من جزء من تلك المسؤوليات- إن لم يكن كلها- التي لا تستطيع تحملها. فجزء كبير من السلطة- بالغة الوطأة عليك- عليك بتحميلها للناس، لمثليهم، محتفظًا لنفسك فقط بالسيطرة العليا، أي بالتوجيه العام لشؤون الدولة".

بصعوبة توقفت الملكة لتوضح رأيها، حين بدأ الوصيف العجوز متلهفًا على تفنيد أسانيدها، وبدآ نقاشًا ساخنا، لكنه مهذب.

لوقت قصير تابع القيصر الشاب نقاشهما، لكنه سرعان ما توقف عن إدراك ما كانا يقولان، وهو لا ينصت إلا إلى صوت مَن كان دليله في الحلم، والذي كان ينطق الآن بصوت مسموع في قلبه.

قال له الصوت: "أنت لست مجرد قيصر، بل ما هو أكثر. أنت إنسان، أتى إلى الدنيا بالأمس فقط، ومحتمل أن تغادرها غدًا. وبعيدًا عن واجباتك كقيصر، التى يتحدث عنها الآن هذا العجوز، فلديك واجبات عاجلة لا يمكن التغاضي عنها بأية حال؛ واجبات إنسانية، لا واجبات قيصر تجاه رعاياه، تلك الواجبات العارضة، لكنه واجب أبدي، واجب الإنسان في علاقته بالرب، الواجب تجاه روحك التي ينبغي إنقاذها، وأيضًا خدمة الرب بتعمير مملكته على الأرض. لست بحاجة للحراسة في أفعالك، فيما مضى أو ما سيأتي، لكن فحسب فيما هو واجب فعله".

فتح عينيه- كانت زوجته توقظه. فأي طريق اختار القيصر الشاب من الثلاثة، سنعرف خلال خمسين عامًا.

مَا مِن مُذنبِيــن

I

قَدَري قَدَرٌ غريب ومدهش إلى حدٍّ كبير! فأنا أرى أنه لا يوجد فقير بائس واحد يعاني تحت وطأة ترف واضطهاد الأغنياء الذين لا يشعرون بشيء مثلما أعاني بشدة من الظلم، والقسوة، وفظاعة اضطهادهم واحتقارهم للفقراء؛ أو الإذلال والبؤس الطاحن الذي أصاب الغالبية العظمى من العمال، المنتجين الحقيقيين لكل ما يجعل الحياة ممكنة. شعرت بذلك لفترة طويلة، وكلما مرت السنون ازداد هذا الشعور أكثر فأكثر، حتى وصل مؤخرًا إلى ذروته. وبالرغم من أني أحس بذلك بصورة حيوية، إلا أنني ما أزال أعيش وسط فساد وخطايا مجتمع الأغنياء؛ ولا أستطيع تركه، لأني أفتقر إلى المعرفة والقوة على فعل

ذلك. لا أستطيع. لا أعرف كيف أغير حياتي فيمكن أن ألبي احتياجاتي الفيزيقية- أكل، نوم، ملابس، ذهابي وإيابي- بدون إحساس بالخزي وارتكاب الخطأ في منصبي الذي أشغله.

في وقتٍ ما، حاولت تغيير منصبي، الذي لم يكن متوافقًا مع ضميري؛ لكن الشروط التي فرضها عليَّ الماضي، وفرضتها عائلتي ومتطلباتها، كانت بالغة التعقيد لدرجة أنهم لم يكونوا ليسمحوا لي بالإفلات من قبضتهم، أو أنني- بالأحرى- لم أستطع معرفة كيف أحرر نفسي. لم تكن لديَّ القوة. والآن وقد تجاوزت الثمانين وأصابني الوهن، توقفت عن محاولات تحرير نفسي؛ ومن الغريب أن أقول أن وهني كلما ازداد أُدرك بقوة أكبر فأكبر عدم مشروعية منصبي، ويصبح ذلك غير قابل للاحتمال أكثر فأكثر.

وما قد حدث لي أنني لم أشغل هذا المنصب مجانًا: لقد شاءت **العناية الإلهية** أن أعري حقيقة مشاعري، فربما يكون ذلك تعويضًا عن كل أسباب معاناتي، أو ربما أكون سببًا في فتح عيون هؤلاء الذين ما يزالون عميانًا عما أراه أنا بوضوح- أو بعضهم على الأقل- وبذلك أخفف العبء عن تلك الأغلبية العظمى ممن يخضعون- في الظروف الحالية- لمعاناة جسدية وروحية بسبب مَن يخدعونهم وأيضًا يخدعون أنفسهم. وبالفعل، فربما أتاح لي المنصب الذي أشغله تسهيلات خاصة لكشف العلاقات المزيفة والإجرامية بين البشر- لقول الحقيقة كاملة فيما يتعلق بمنصبي بدون التشويش على الأمر بمحاولة تبرئة نفسي، وبدون إثارة حسد الأغنياء، أو مشاعر الاضطهاد في قلوب الفقراء والمسحوقين. فأنا الآن في موضع لا ينفي فحسب الرغبة في تبرئة نفسي، بل- على

العكس- أجد من الضروري أن أبذل جهدًا حتى لا أبالغ في وصف شر معظم مَن أعيش بينهم، الذين أخجل من العيش في مجتمعهم، وأكره موقفهم تجاه رفاقهم من كل قلبي، رغم أنه من المستحيل أن أفصل قَدَري عن قَدَرهم. لكن عليَّ أيضًا أن أتحاشى أخطاء هؤلاء الديمقراطيين والآخرين الذين- في دفاعهم عن المضطهدين والمستعبدين- لا يرون فشلهم ولا أخطاءهم، ولا يسمحون بمساحات كافية للصعوبات والأخطاء الموروثة من الماضي، بما يقلل- إلى حدٍّ ما- من مسؤولية الطبقات العليا.

متحررًا من الرغبة في تبرئة النفس، متحررًا من خوف المحرَّرين، متحررًا من ذلك الحسد والكراهية اللذين يشعر بها المضطهَد تجاه المضطهِدين، فإنني في أفضل موقع لرؤية الحقيقة وقولها. ربما ذلك هو السبب في أن العناية الإلهية قد وضعتني في تلك المكانة. وسأبذل جهدي لأجعله في الحسبان.

II

الكسندر إيفانوفيتش فولجين، موظف البنك بالبكالوريا في موسكو، براتب ثمانية آلاف روبل في العام، رجل بالغ الاحترام بين زملائه، ما

يزال يقيم في منزل ريفي. ومالك المنزل صاحب أملاك ثري، يمتلك نحو ألفين وخمسمائة فدان، ومتزوج من ابنة عم المستأجر. تعب ڤولجين بعد أمسية قضاها في لعب القينت* على رهانات صغيرة مع أفراد من العائلة، فذهب إلى حجرته ووضع ساعته، وعلبة سجائره الفضية، وكتاب جيبه، ومحفظته الجلدية الكبيرة، وفرشاة الجيب والمشط على طاولة صغيرة مغطاة بمفرش أبيض، وبعدها، إذ خلع معطفه، وصدريته، وقميصه، وبنطلونه، وملابسه الداخلية، وجواربه الحريرية، وحذاءه الإنجليزي، ارتدى ملابس النوم. كانت ساعته تشير إلى منتصف الليل. دخن ڤولجين سيجارة، واستلقى على بطنه لنحو خمس دقائق يراجع انطباعات اليوم؛ بعدها، إذ أطفأ الشمعة، استدار على جانبه، واستغرق في النوم في نحو الساعة الواحدة، برغم قلق غير محدود. وإذ استيقظ في الثامنة من صباح اليوم التالي، ارتدى الخُف والعباءة، ودق الجرس.

دخل الخادم العجوز ستيفن، الذي خدم في العائلة منذ ثلاثين عامًا، وهو أب لعائلة وجد لستة أحفاد، دخل الغرفة مسرعًا، بساقيه المحنيتين، حاملاً حذاء ڤولجين الملتمع من جديد، الذى خلعه ڤولجين الليلة الفائتة، وبدلة منظفة جيدًا بالفرشاة، وقميصًا نظيفًا. شكره الساكن، ثم سأله عن أحوال الطقس (كانت الستائر تسمح لضوء الشمس بألا يمنع أي شخص من النوم حتى الحادية عشرة صباحًا إن كانت لديه الرغبة في ذلك)، وما إذا كان ضيوفه قد ناموا جيدًا.

* مراهانات صغيرة تشبه المزاد العلني في لعبة البريدج.

نظر في ساعته- كان الوقت ما يزال مبكرًا- وبدأ في الاغتسال وارتداء ملابسه. كان الماء مُعدًّا، وكل شيء على منضدة الاغتسال، ومنضدة الملابس جاهزة للاستخدام، ومرتبة بنظام- الصابون وفرشاة الشعر والأسنان، ومقص الأظافر والمبرد. غسل يديه ووجهه على مهل، ونظف أظافره وقصها، ودعك بشرته بالمنشفة، ودعك جسده الأبيض السمين بالاسفنجة من رأسه حتى قدميه. ثم بدأ في تمشيط شعره. وهو واقف أمام المرآة، بدأ أولاً بتمشيط لحيته الرمادية المجعدة بفرشاتين انجليزتي الصنع، وهو يفرقها إلى أسفل في المنتصف. ثم مشَّط شعره، الذى كان يحمل علامات الخفة، بمشط كبير من صدف ظهر السلحفاة. وهو يرتدي ملابسه الداخلية الكتان، وجواربه، وحذاءه طويل العنق، وبنطلونه- الذي كان معلقًا على شماعة أنيقة مع الصدرية والمعطف- جلس بدون المعطف على كرسى وثير ليستريح بعد ارتداء الملابس، وأشعل سيجارته، وبدأ في التفكير في المكان الذي يقوم فيه بتمشية الصباح- ألِى المنتزه أم "الموانئ الصغيرة" (ياله من اسم مضحك لغابة!). قرر أن يذهب إلى "الموانئ الصغيرة". ثم سيكون عليه بعد ذلك أن يرد على خطاب سيمون نيكولايڤيتش؛ لكن ما يزال هناك متسع من الوقت يكفي لذلك.

وهو ينهض بسيماء التصميم، أخرج ساعته. كانت الساعة التاسعة إلا خمس دقائق. وضع ساعته في جيب الصدرية، ومحفظته- بما تبقى فيها من المائة وثمانين روبلاً التي أخذها لرحلته، ولأية مصروفات طارئة لإقامته مع ابن عمه لمدة أربعة عشر يومًا- ثم وضع في جيب بنطلونه علبة سجائره وولاعة كهربائية، ومنديلين نظيفين وضعهما في جيب

المعطف، وخرج من الغرفة، تاركا الفوضى التي قام بها- كما المعتاد- ليرتبها ستيفن، وهو رجل عجوز يتجاوز الخمسين من عمره. كان ستيفن ينتظر أن "يكافئه" ڤولجين- كما وعده- على اعتياده العمل الذي لا يستشعر فيه أدنى نفور. وبعد أن حملق ڤولجين في المرآة، وهو يشعر بالرضا عن مظهره، ذهب إلى حجرة الطعام.

هناك، بفضل جهود مدير المنزل، والخادم، ومساعد رئيس الخدم- قام الأخير في الفجر ليركض إلى بيته ليسن منجل ابنه، ويجهز الإفطار. على مفرش أبيض نظيف، كان ثمة سماور فضي ملتمع يغلي (على الأقل فهو يبدو كالفضة)، وإناء القهوة، ولبن ساخن، وقشدة، وزبد، وكل أنواع الخبز الأبيض الفاخر والبسكويت.

لم يكن يجلس إلى الطاولة سوى الإبن الثاني في المنزل، ومعلمه (وهو طالب)، والسكرتير. كان مالك المنزل- وهو عضو نشط في الـ زيمستوف*- فلاح ثري- قد غادر المنزل في الثامنة ليصل إلى عمله. تحدث ڤولجين مع الطالب والسكرتير- أثناء شربه للقهوة- عن الطقس ورهان الڤينت بالأمس، وناقش تصرفات ثيودوريت الغريب أمس الأول، إذ كان بالغ الوقاحة مع أبيه بدون أدنى سبب. وثيودوريت هو الابن الأكبر في المنزل، ولا يحسن التصرف أبدًا. اسمه تيودور، لكن شخصًا ما أطلق عليه "ثيودوريت"، إما كمزحة أو ليغيظه؛ وإذ بدا الإسم طريفًا فقد

---

*زيمستوف: بالروسية Земство: شكل من أشكال الحكم المحلي، وضع خلال الإصلاحات الليبرالية التي اضطلع بها ألكسندر الثاني في الإمبراطورية الروسية. وبعد ثورة أكتوبر1917، تم إلغاء هذا النظام.

التصق به، بالرغم من أن أفعاله خرجت عن نطاق الطرافة تمامًا. وذلك ما كان حتى الآن. التحق بالجامعة، لكنه تركها في العام الثاني، والتحق بفيلق لحرس الخيالة؛ لكنه تخلى عن ذلك أيضًا، ليعيش الآن في الريف بلا عمل، مرتكبًا النقائص، غير راض عن أي شيء. كان ثيودوريت ما يزال في سريره؛ وكذلك باقى أفراد العائلة- آنا ميخائيلوفْنا، سيدة العائلة، وأختها، وأرملة جنرال؛ وأحد رسامي المناظر الطبيعية، الذي يعيش مع العائلة.

أخذ ڤولجين قبعته الباناما* من فوق طاولة الصالة (ثمنها عشرون روبلاً) وعصاه ذات المقبض العاجي، وخرج. وحين مر بالشرفة، البهيجة بالزهور، سار خلال حديقة الزهور، التي تقع في منتصفها صوبا دائرية، بحلقات من زهور حمراء وبيضاء وزرقاء، وأول حروف اسم سيدة المنزل محفورة في سجادة في وسط الحديقة. وإذ انتهى من حديقة الزهور، دخل ڤولجين طريقًا من أشجار الليمون المعمرة منذ مئات السنين، حيث كانت الفلاحات الصغيرات ينظمن ويكنسن بالجاروف والمكانس. كان البستاني مشغولاً في القياس، وأحد الأولاد يحضر شيئًا ما في عربة. وإذ انتهى من ذلك، دخل ڤولجين المنتزه الشاسع بما لا يقل عن مائة وخمس وعشرين فدانًا، من الأشجار القديمة الفاخرة، والمقسم بشبكة من الممرات المعتنى بها جيدًا. وفيما كان يدخلن وهو يتمشى، اتخذ ڤولجين طريقه المفضل، مارًا بالمنزل الصيفي إلى الحقول من ورائه. كان الجو ساحرًا في المنتزه، لكنه كان أكثر سحرًا في

* قبعة الباناما: قبعة مضفورة يدويًا من أوراق نبات jipijapa الذي ينمو في جنوب ووسط أمريكا.

الحقول. إلى اليمين كانت هناك سيدات يحفرن بحثًا عن البطاطس، وهن يشكلن أكوامًا باللونين الأحمر المشرق والأبيض، وإلى اليسار حقول القمح، والمروج، والقطيع الذي يرعى؛ وفي الأمام، إلى اليمين قليلاً، كانت هناك أشجار السنديان الداكنة، الداكنة بـ"الموانئ الصغيرة". أخذ ڤولجين نفسًا عميقًا، وشعر بالسعادة لأنه ما يزال حيًّا، خاصة هنا في بيت ابن عمه، حيث كان يستمتع بشكل كامل بباقي وقته المتبقي من عمله في البنك.

"محظوظون هؤلاء الناس الذين يعيشون في الريف"، فكر. "حقًّا، فمع زراعته ومنصبه في الزيمستڤو، فإن مالك الضيعة لديه القليل من السلام حتى في الريف، لكن تلك هي رؤيته الخاصة". هز ڤولجين رأسه، وأشعل سيجارة أخرى، وإذ خطا بثبات بقدمه القوية، في الحذاء الإنجليزي السميك، بدأ يفكر في عمله الشتوى الثقيل المتراكم أمامه في البنك.

"سأكون في البنك يوميًّا من العاشرة إلى الثانية، وأحيانًا حتى الخامسة. واجتماعات المجلس.. والمقابلات الخاصة مع العملاء.. بعد ذلك مجلس الدوما. بينما هنا.. مبهج. قد يكون بذلك بعض الملل، لكنه لا يدوم طويلاً". ابتسم. بعد تمشية في "الموانئ الصغيرة"، استدار، وذهب رأسًا عبر الحقول التي يتم حرثها.

قطيع من الأبقار، والعجول، والأغنام، والخنازير، يمتلكه أهل القرية، يرعى هنا. وأقصر طريق للمنتزه هو المرور خلال القطيع. أزعَج الأغنام، ففرت واحدة تلو الأخرى، تبعتها الخنازير، التي حملقت فيه

اثنتان منهم برصانة. صاح الصبي الراعي على الأغنام، وفرقع بسوطه. "كم نبعد عن حدود أوروبا"، فكر ڤولجين، مستدعيًا ذكرياته عن إجازاته العديدة في الخارج. "فلن تجد بقرة واحدة مثل تلك في أي مكان بأوروبا". ثم، إذ أراد معرفة إلى أين يفضي الطريق المتفرع من الطريق الرئيسي الذي يمشي فيه، ومن هو صاحب القطيع، نادى على الصبي.

"لمن هذا القطيع؟"

غمرت الصبي الدهشة، وهو يشرف على الرعب، عندما حدق في قبعة وذقن ڤولجين الممشطة بعناية، وفوق ذلك نظارته ذات الإطارات الذهبية الدقيقة، إلى حد أنه لم يجب في الحال. وعندما كرر ڤولجين سؤاله استجمع الصبي قواه، وقال: "ملكٌ لنا". سأله ڤولجين، وهو يهز رأسه ويبتسم: "ومن هم "نا"؟ يرتدى الصبي حذاء من الجلد المضفور، ويضع أشرطة من الكتان حول ساقيه، وقميصًا من قماش خام، متسخًا ومرقعًا في الأكتاف، وقبعة ممزقة في الأعلى.

"مَن هم "نا"؟

"هو قطيع قرية بيروجوف".

"كم عمرك؟"

"لا أعرف".

"هل تعرف القراءة؟"

"لا، لا أعرف".

"ألم تذهب إلى المدرسة؟"

"بلى، ذهبت".

"ألم تتعلم القراءة؟"

"لم أتعلم القراءة".

"إلى أين يؤدي هذا الطريق؟"

أخبره الصبي، ومضى ڤولجين نحو المنزل، وهو يفكر كيف يحكي لنيقولا بتروڤيتش عن الحالة البائسة لمدارس القرية، بالرغم من كل مجهوداته.

عند اقترابه من المنزل، نظر ڤولجين في ساعته، فرأى أنها كانت قد تجاوزت الحادية عشرة. تذكر أن نيقولا بتروڤيتش كان سيذهب بالعربة إلى أقرب مدينة، وهو ما يعني أن يسلمه الخطاب ليرسله إلى موسكو، لكن الخطاب لم يكتب بعد. كان الخطاب بالغ الأهمية موجهًا إلى صديق، ليطلب منه أن يطرح سعرًا باسمه للوحة "المادونا" التي ستُطرح للبيع في مزاد علني. حين وصل إلى المنزل، رأى عند الباب أربعة خيول كبيرة، أصيلة، جيدة التغذية، أنيقة، مشدودة إلى عربة، كان يلتمع رنيشها الأسود في الشمس. كان السائق جالسًا على مقعد من قماش القفطان، بحزام فضي، والخيول تجلجل بأجراسها الفضية من وقت لآخر.

عند الباب الأمامي، كان هناك فلاح حافي القدمين، في قفطان مرقع. انحنى من باب الأدب. سأله ڤولجين عما يريد.

"لقد أتيت لمقابلة نيقولا بتروڤيتش".

"لماذا؟"

"لأني في ورطة- لقد مات حصاني".

بدأ ڤولجين في سؤاله. أخبره الفلاح بوضعه. له خمسة أطفال، وهذا كان الحصان الوحيد الذي يملكه. الآن مات. وبكى.

"وماذا ستفعل؟"

"أتسول". وركع، وظل راكعًا بالرغم من اعتراض ڤولجين.

"ما اسمك؟"

"ميتري سوداريكوف"، رد الفلاح، وهو ما يزال راكعًا.

أخرج ڤولجين ثلاثة روبلات من محفظته وأعطاهم للفلاح، الذي أبدى امتنانه بسجوده على الأرض، ثم دخل المنزل. وجد ضيفه واقفًا في البهو.

اقترب من ڤولجين، وسأله: "أين خطابك؟ فأنا على وشك الخروج".

"أنا بالغ الأسف، سأكتبه في دقيقة، إذا سمحت لي، لقد نسيته تمامًا. ويسرني هنا أن المرء يمكن أن ينسى شيئًا ما".

"وهو كذلك، لكن أسرع. فالخيول تقف مستعدة منذ حوالي ربع ساعة، والذباب يعضها بشراسة. هل يمكن أن تنتظر، أرسنتي؟" سأل السائس.

"لَم لا؟" قال السائس، وهو يفكر بينه وبين نفسه "فلماذا يطلبون الخيول وهم غير مستعدين؟ نندفع في الاستعداد، ثم نقف لنُطعم

الذباب".

"حالاً، حالاً"، ذهب ڤولجين إلى حجرته، لكنه رجع ليسأل نيقولا بتروڤيتش عن الفلاح المتسول.

"هل رأيته؟ إنه سكران، لكنه مع ذلك يستحق الشفقة. أسرع!"

أخرج ڤولجين حقيبته، وكل متطلبات الكتابة، وكتب الخطاب، ووقع على شيك بقيمة مائة وثمانين روبلاً، وأغلق المظروف، وأعطاه إلى نيقولا بتروڤيتش.

"إلى اللقاء".

يقرأ ڤولجين الصحف حتى موعد الغداء. لا يقرأ سوى الصحف الليبرالية: "الجازيت الروسية"، و"سبيتش"، وأحيانًا "ذا راشيان وورلد"، لكنه لا يلمس "ذا نيو تايمز" التي يدفع اشتراكها صاحب المنزل.

وفيما كان- في استرخائه- يتفحص الأخبار السياسية، وأعمال القيصر، وأعمال الرئيس، والوزراء، وقرارات مجلس الدوما، وكان على وشك المرور إلى الأخبار العامة، والمسارح، والعلوم، وجرائم القتل، والكوليرا، سمع جرس الغداء يدق.

بفضل جهود عشرة أشخاص تقريبًا- الغسالات - البستانيين، الطباخات، الخدم والسعاة- امتدت مائدة عامرة لثمانية أفراد، مع أباريق فضية للماء، وأوان، وخبز، ونبيذ، ومياه معدنية، وكؤوس بلورية، ومفرش فاخر للمائدة من الكتان، فيما يهرع خادمان جيئةً وذهابًا يحضرون ويخدمون، ثم يرفعون عن المائدة المقبِّلات وسائر الأطباق

الساخنة والباردة.

كانت المضيفة تتحدث بلا انقطاع عن كل شيء تفعله؛ وهي تفكر وتتحدث؛ وكان من الواضح أنها تعتبر أن كل ما فكرت فيه أو قالته أو فعلته كان ممتازًا، وأنه سوف يسعد الجميع إلا الحمقى. وكان ڤولجين يشعر ويعرف أن كل ما قالته غبي، لكنه لن غباء غير مرئي، ولهذا استمر في المحادثة. كان ثيودوريت كئيبًا وصامتا؛ كانت الطالب نادرًا ما يتبادل بضع كلمات مع الأرملة. ومن آن لآخر، يتوقف الحديث، ثم يبدي ثيودوريت اعتراضه، ويصاب الجميع بالإحباط. في تلك اللحظات تأمر المضيفة بأصناف لم تقدم بعد، فيسرع الخادم إلى المطبخ، أو لمدير المنزل، ثم يعود سريعًا. ولا أحد لديه الحماس للأكل أو الكلام. لكنهم كلهم يجبرون أنفسهم على الأكل و الحديث، وهكذا يمضي وقت الغداء.

الفلاح الذي كان يتسول لأن حصانه مات، اسمه ميتري سوداريكوف. قضى اليوم كله، قبل أن يذهب إلى مالك الأرض بشأن حصانه الميت. أولاً وقبل كل شيء، ذهب إلى مشتري الحيوانات الميتة، سانين، الذي يقيم في قرية قريبة. كان هذا المشتري بالخارج، لكنه انتظره ولم ينته من المساومة على سعر الجِلد إلا مع موعد العشاء. ثم استعار حصان جاره ليأخذ حصانه الميت إلى أحد الحقول ويدفنه، حيث يُمنع دفن الحيوانات الميتة بالقرب من القرية. لم يكن أدريان يرغب في إعارة حصانه، لأنه يعمل في حقل البطاطس، لكن ستيفن أشفق على ميتري وأعطاه له بعد اقتناعه. بل إنه ساعده في رفع الحصان الميت إلى العربة الكارو. نزع ميتري حدوتَي الحصان من رجليه الأماميتينن وأعطاهما إلى

زوجته. كانت إحداهما مكسورة، أما الأخرى فكانت كاملة. وفيما كان يحفر القبر بجاروف غير حاد، جاء المشتري ونزع الجلد؛ وألقيت الجثة آنئذٍ في الحفرة، وتمت تغطيتها. شعر ميتري بالإرهاق، ودخل كوخ ماترينا، حيث شرب نصف زجاجة ڤودكا مع سانين ليواسي نفسه. ثم عاد إلى منزله، وتشاجر مع زوجته، واستلقى لينام على التبن. لم يخلع ملابسه، بل نام كما هو، بمعطفه الممزق كغطاء. كانت زوجته في الكوخ مع بناته- كانت هناك أربع بنات، والصغرى كان عمرها خمسة أسابيع فقط. استيقظ ميتري قبل الفجر كعادته. تأوه من أحداث الأمس التي اقتحمته فجأة- كيف ناضل الحصان وناضل، وبعدها هوى. الآن ما مِن حصان، وكل ما يملكه هو ثمن الجلد، أربع روبلات وثمانون كوبيك. وإذ نهض ضبط الأشرطة الكتان حول ساقيه، وعبر الفناء إلى الكوخ. كانت زوجته تضع القش في الموقد بيد، وباليد الأخرى تحمل تمسك بطفلتها إلى صدرها، الذي كان بارزًا من قميصها المتسخ.

رشم ميتري الصليب على نفسه ثلاث مرات، متجهًا إلى الركن المعلقة به الأيقونات، وردد كلمات بلا أي معنى، كان يسميها صلوات للثالوث، والعذراء، للعقيدة ولأبينا.

"ألا يوجد ماء؟"

"ذهبت الفتاة لتحضره. لديَّ بعض الشاي. هل ستذهب إلى مالك الأرض؟"

"نعم، من الأفضل ذلك". دخان الموقد جعله يسعل. أخذ خرقة من فوق الدكة الخشبية، ودخل الشرفة. عادت الفتاة بالماء. ملأ ميتري فمه

بالماء من الدلو، ورشه على يديه، وأخذ قليلاً في فمه ليغسل وجهه، وجفف نفسه بالخرقة، ثم فرَق وساوى شعره المجعد بأصابعه، وغادر المنزل.

توجهت ناحيته فتاة في العاشرة، لا ترتدي سوى قميص متسخ. قالت:

"صباح الخير، يا عم ميتري. عليك أن تذهب لدراس القمح".

"حسنًا، أنا قادم"، أجابها ميتري. أدرك أن عليه أن يرد المساعدة التي قدمها إليه الأسبوع الماضي كوموشكير، وهو شخص فقير مثله، عندما كان يقوم بدراس قمحه بآلة يجرها حصان.

"أخبريهم أنني قادم- قادم على موعد الغداء. فعليَّ أن أذهب إلى أوجرومي". عاد ميتري إلى الكوخ، وإذ أبدل حذاءه المضفور من الجلد وأربطة ساقيه الكتان، انطلق ليقابل مالك الأرض. وبعد أن أخذ ثلاثة روبلات من ڤولجين، ومثلهم من نيقولا بيتروڤيتش، عاد إلى بيته، وأعطاهم لزوجته، ثم ذهب إلى جاره. كانت آلة الدراس تهمهم، والسائق يصيح. كانت الخيول الهزيلة المجهدة تدور ببطء حوله، وهي تحرن في حبالها. وكان السائق يصيح بها بنغمة رتيبة واحدة: "الآن، هنا، أعزائي".

بعض النسوة كن يفككن الأحزمة، وأخريات يجمعون ما تبعثر من القش وكيزان الذرة، وأخريات أيضًا كن يجمعن ملء الذراعين من القمح ويسلمنه للرجال لتغذية الآلة. كان العمل على أشده. وفي حديقة المطبخ، التي كان على ميتري أن يمر بها، كانت هناك فتاة لا ترتدي

سوى قميص طويل، تستخرج البطاطس من الحفر، وتضعها في السلة.

"أين جدك؟" سألها ميتري.

"في الجرن ".

ذهب ميتري إلى الجرن وبدأ العمل في الحال. كان العجوز في الثمانين يعرف متاعب ميتري.، بعد تحيته، ترك له مكانه ليغذي الآلة.

خلع ميتري معطفه المهلهل، ووضعه بعيدًا، بالقرب من السياج، ثم بدأ عمله بنشاط، ململمًا القمح ثم يرمي به في الآلة. استمر العمل بلا انقطاع حتى ساعة العشاء. صاح الطهاة مرتين أو ثلاثًا، لكن أحدًا لم ينتبه إليهم؛ لا لأن العمال لم يصدقوهم، بل لأنهم يسمعون بصعوبة في صخب العمل والأحاديث المتعلقة به. في النهاية، دوت صفارة آلة دراس المالك على بُعد ثلاثة أميال، وجاء صاحب الأرض إلى الجرن. كان رجلاً ممشوقًا في الثمانين. قال: "إنه وقت التوقف؛ حان وقت وجبة العشاء". بدا أن العمال يريدون مضاعفة جهودهم. وفي لحظة تم إزالة القش؛ والحبوب التي تم فصلها عن القش تم تخزينها، وآنئذٍ دخل العمال إلى الكوخ.

كان الكوخ مسودًا بفعل الدخان، فالموقد بلا مدخنة، لكنه كان مرتبًا، والدكك مرصوصة حول الطاولة، وهناك متسع لكل من يعملون، وكانوا تسعة، دون احتساب أصحاب الأرض. خبز، حساء، بطاطس مسلوقة، ومشروبات وضعت على الطاولة.

دخل الكوخ- أثناء الوجبة- شحاذ عجوز بذراع واحدة، يستند على

عكاز، وتتدلى حقيبة على كتفه.

"السلام على أهل المنزل. شهية طيبة لكم جميعًا. من أجل المسيح أعطوني شيئًا".

"فليُعطك الرب"، قالت السيدة، وهي امرأة عجوز، وزوجة ابن صاحب الأرض. "لا تغضب منا".

قال رجل عجوز كان واقفًا بجوار الباب: "أعطه بعض الخبز، يا مارثا. هل سمعتِ؟"

"لا أدري إذا ما كان لدينا ما يكفي". "آه، هذا خطأ، يا مارثا. فالرب أمرنا بأن نساعد الفقير. اقطعي له شريحة".

أطاعت مارثا. وذهب الشحاذ. نهض العامل المسؤول عن آلة الدراس، تلا صلاته، وشكر مضيفيه، ثم ذهب للاستراحة.

لم يسترح ميتري، بل ركض إلى الدكان ليشتري بعض الطباق. كان مشتاقًا للتدخين. أثناء تدخينه، تحدث مع رجل من ديمينسك، وسأله عن ثمن الماشية، لأنه رأى أن الرجل لن يستطيع تصريف أموره إلا إذا باع بقرة. عندما عاد إلى الآخرين، وجدهم قد استأنفوا العمل من جديد، وتواصل هكذا حتى المساء.

بين هؤلاء المطحونين، المخدوعين، والمسلوبين، الذين يصابون بالتشوش لكثرة العمل، ويحكم عليهم تدريجيًا بالموت لسوء التغذية، كان هناك رجال يعيشون ويعتبرون أنفسهم مسيحيين؛ وآخرون مستنيرين لدرجة أنهم يحسون بعدم حاجتهم- من بعد- إلى المسيحية ولا

أية ديانة، ويبدون تقديرًا عاليًا لأنفسهم. ومع ذلك، فحيواتهم البشعة، الكسولة يدعمها العمل المهين والمضطرد لهؤلاء العبيد، إن لم نذكر عمل ملايين من العبيد الآخرين، الذين يكدحون في المصانع لإنتاج السماورات، والأدوات الفضية، والعربات، والآلات، وما شابه لاستخدامهم الخاص. يعيشون وسط هذه الفظائع، يرونهم ومع ذلك لا يرونهم، بالرغم من أنهم طيبو القلب غالبًا- رجال ونساء عجائز، شبان وشابات، أمهات وأطفال- أطفال فقراء يتم إفسادهم وتدريبهم في حالة عمًى روحي.

ها هو عجوز أعزب، مالك آلاف الأفدنة، يعيش حياة بطالة، وشراهة، وتحلل زائد، يقرأ "ذا نيو تايمز"، ويندهش من أن الحكومة يمكن أن تكون مفتقرة إلى الحكمة إلى حد السماح لليهود بدخول الجامعة. وها هو ضيفه، حاكم مقاطعة سابق، والآن عضو بالمجلس النيابي براتب كبير، يقرأ باقتناع أن مجلسًا للمحامين مرر قرارًا لصالح عقوبة الإعدام. وخصمهم السياسي، ن. ب.، يقرأ صحيفة ليبرالية، ولا يستطيع أن يستوعب عمَى الحكومة بالسماح بوجود اتحاد الرجال الروس. وها هي أم طيبة، حنون، تقرأ لطفلتها قصة عن فوكس، وهو كلب تسبب في عرج بعض الأرانب. وها هي هذه الفتاة الصغيرة. خلال تمشيتها ترى أطفالاً آخرين حفاة، جوعى، يتصيدون التفاح الأخضر الذي يسقط من الشجر؛ ولأنها قد اعتادت على رؤية تلك المناظر، فإن هؤلاء الأطفال لايبدون- بالنسبة لها- أطفالاً مثلها، لكن فحسب جزءًا من البيئة المحيطة المعتادة- من المشهد الطبيعي المألوف.

فلماذا ذلك؟

حُــلمي

I

"لم يعد لها وجود، بالنسبة لي، كابنة. ألا يمكنك أن تفهم؟ ببساطة، لم يعد لها وجود. ومع ذلك، فلا أستطيع أن اتركها لإحسان الغرباء. سأرتب الأشياء حتى تعيش كما تحب، لكنني لا أرغب في سماع أي شيء عنها". مَن كان يمكنه أن يظن... إنه مرعب.. مرعب".

هز كتفيه لا مبالاةً، وهزّ رأسه ورفع عينيه. قال تلك الكلمات الأمير ميخائيل إيڤانوڤيتش إلى أخيه بيتر، الذي كان حاكم مقاطعة في روسيا الوسطى. كان الأمير بيتر رجلاً فى الخمسينيات من عمره، ويصغر ميخائيل بعشر سنوات.

عند اكتشاف أن ابنته- التي تركت بيته منذ عام مضى- قد عادت لتستقر هي وطفلها في البلدة، جاء الأخ الأكبر من سان-بطرسبرج إلى

المدينة الريفية، حيث دار ذلك الحوار.

كان الأمير ميخائيل إيفانوفيتش طويل القامة، وسيمًا، ذو شعر أشيب، وبشرة زاهية، مزهوًّا بنفسه وجذابًا في مظهره وسلوكه. تتألف عائلته من زوجته فظة، سريعة الغضب، تتشاجر معه باستمرار على أتفه التفاصيل، وابن غير منضبط، مسرف ومتهور، لكنه "لطيف" طبقًا لمعايير أبيه، وابنتين، تزوجت الكبرى زيجة جيدة وتعيش في سان- بطرسبرج؛ والصغرى المدللة، ليزا، التي اختفت من المنزل منذ عام. ومنذ قليل فحسب، عثر عليها مع طفلها في هذه المدينة الريفية.

أراد الأمير بيتر أن يسأل أخاه كيف، وتحت أية ظروف، تركت ليزا المنزل، ومَن يمكن أن يكون الأب الحقيقي لهذه الطفلة. لكنه لم يجهد عقله للاستفسار عن تلك الأمور.

في ذلك الصباح نفسه، عندما حاولت زوجته تقديم المواساة لشقيق زوجها، لمح الأمير بيتر مسحة من الحزن على وجه أخيه. وفي الحال تغطت هذه المسحة بتعبير عن كبرياء لا يُمَس، وبدأ في سؤالها عن شقتهما، والثمن الذي دفعته فيها. في وقت الغداء، وأمام العائلة والضيوف، كان كعادته لماحًا ولاذعًا فى سخريته. وتجاه كل الناس- باستثناء الأطفال، الذين كان يعاملهم في الغالب بكل حنان ووقور- كان يتخذ موقف المتشامخ المترفع. ومع ذلك، فقد كان من الطبيعي- بالنسبة له- أن يقر له الجميع بالحق فى أن يكون متعاليًا.

في المساء، رتب أخوه لعبة الورق "الهويست". وعندما أوى إلى فراشه في الغرفة التي تم إعدادها له، وكان على وشك خلع طاقم أسنانه،

طرق أحدهم على الباب برقة بإصبعين.

"مَن بالباب؟"

"C'est moi, Michael إنها أنا، يا ميخائيل".

تعرف الأمير ميخائيل إيڤانوڤيتش على صوت زوجة أخيه، فاكفهر، وأعاد تركيب طاقم أسنانه، وقال لنفسه: "ماذا تريد؟" ورد بصوت عال: "Entrez أدخلي".

زوجة أخيه مخلوق لطيف، هادئ الطبع، وتنحني في خضوع لإرادة زوجها. لكنها تبدو للكثيرين مهووسة، ولا يتردد البعض فى وصفها بالحمقاء. كانت جميلة، ولكن شعرها كان دائمًا مصففًا بإهمال، وهي نفسها كانت مهملة وشاردة الذهن. كانت لديها أيضًا أكثر الأفكار غرابةً وبُعدًا عن الأرستقراطية، ولا تناسب بأية حال زوجة مسئول كبير. وكانت تعبر عن تلك الأفكار بطريقة غير متوَقعة في معظم الأوقات، وتثير دهشة الجميع، بمن فيهم زوجها وأصدقاؤه.

"إنه تفكير مجنون أن تعيدوا إرسالي، لكني لن أذهب، قلت لكم ذلك مسبقًا*" قالت ذلك بطريقتها الخاصة، بصورة لامبالية.

"حفظك الله"، قال شقيق زوجها، بأدبه الزائد المعتاد، وقدم لها مقعدًا.

"ألا يزعجك هذا؟" سألته، وهى تخرج سيجارة. "لست بسبيلي

* هذه الجملة- وأجزاء من الحوار التالي- باللغة الفرنسية، لغة الطبقات العليا بالمجتمع الروسي، آنذاك؛ المترجمة.

لقول أي شيء فظ، يا ميخائيل. لا أأريد سوى أن أقول شيئًا عن ليزوشكا".

تنهد ميخائيل- آلمته الكلمة؛ لكنه- إذ سيطر فى الحال على نفسه- أجاب بابتسامة مُتعَبة. "لابد أن يكون حوارنا حول موضوع واحد فقط، وهو الموضوع الذي تريدين مناقشته". كان يتحدث دون أن ينظر إليها، وتحاشى حتى ذكر الموضوع. لكن زوجة أخيه الصغيرة الجميلة، والممتلئة، لم تحمر خجلاً. استمرت في النظر إليه بنفس النظرة اللطيفة، الراجية من عينيها الزرقاوين، وهي تتنهد حتى بصورة أكثر عمقا.

"ميخائيل، صديقي الجميل، فلتأخذك الشفقة بها. إنها مجرد إنسان".

"لم أشك في ذلك أبدًا"، قال ميخائيل بابتسامة مريرة.

"إنها ابنتك".

"كانت كذلك- لكن، عزيزتي آلين، لماذا نتحدث في هذا الموضوع؟"

"ميخائيل، عزيزي، ألن تراها؟ أريد فقط أن أقول، أن مَن يقع عليه اللوم-"

احتقن الأمير ميخائيل؛ وأصبح وجهه قاسيًا.

"بحق السماء، فلنتوقف. فقد عانيت بما يكفي. والآن ليس لديَّ سوى رغبة واحدة، وهي أن نجعلها في وضع يسمح لها بأن تستقل عن الآخرين، وبذلك لن تكون بحاجة- من بَعد- إلى التواصل معي. ومن ثَمّ تستطيع أن تعيش حياتها الخاصة، وعائلتي وأنا لا نريد أن نعرف عنها المزيد. هذا كل ما أستطيع فعله".

"ميخائيل، أنت لا تقول أي شيء سوى "أنا"! وهي، أيضًا، تمتلك "أنا"ها "

"بلا شك؛ لكن، عزيزتي آلين، من فضلك، انسي هذا الأمر. إنه يؤثر فيَّ بعمق".

ظلت ألكسندرا ديميتريڤنا صامتة لدقائق قليلة، وهي تهز رأسها.

"وماشا، زوجتك، هل تفكر مثلك أيضًا؟"

"نعم، تمامًا".

غمغمت ألكسندرا ديميتريڤنا بصوت غامض.

"فلنتوقف عن المناقشة هنا، وطابت ليلتِك"، قال. لكنها لم تخرج. وقفت صامتة لبرهة. ثم، - "أخبرَني بيتر أنك تنوي أن تترك لها أموالاً مع المرأة التي تسكن معها. هل لديك العنوان؟"

"نعم، معي".

"لا ترسل المال إلى المرأة، يا ميخائيل! اذهب بنفسك. فقط لترى كيف تعيش ابنتك. وإذا لم تكن لديك رغبة في رؤيتها، فلست بحاجة إلى ذلك. هو- ليس هناك؛ لا أحد هناك".

ارتجف ميخائيل إيڤانوڤيتش بشدة.

"لماذا تعذبينني هكذا؟ إنها خطيئة في حق حُسن الضيافة!"

قامت ألكسندرا ديميتريڤنا، تغالبها الدموع، متأثرةً بتوسلاتها هي، وقالت: "إنها بائسة حقًا، لكنها عزيزة علينا".

نهض، ووقف منتظرًا أن تنهي كلامها. أشارت بيدها.

"ميخائيل، ما تفعله خطأ"، قالت ذلك، ثم تركته.

بعد ذهابها بمدة طويلة، تمشى ميخائيل إيڤانوڤيتش جيئةً وذهابًا في حدود مربع السجادة. اكفهر وارتعش، وتعجب، " آه، آه!" فأفزعته نبرة صوته، فالتزم الصمت.

كان كبرياؤه المجروح يعذبه. فهي ابنته التي تربت في منزل والدتها، أڤدوتيا بوريسوڤنا الشهيرة، التي شرفتها الإمبراطورة بزياراتها، صاحبة المعارف الذي يشرفون كل العالم! ابنته ـ؛ وقد عاش حياته كفارس قديم، لا يعرف الخوف ولا اللوم. وحقيقة أن لديه ابنًا غير شرعي من امرأة فرنسية، تقيم في الخارج، لم تنل من تقديره لذاته. والآن ها هي ابنته، التي لم يعطها فحسب ما يستطيعه الأب أو يجب عليه فعله؛ هذه الإبنة التي أتاح لها تعليمًا رفيعًا، ومنحها كل الفرص للتوافق مع أرقى مجتمع روسي ـ تلك الابنة التي يمنحها فحسب كل ما ترغبه وتتمناه ابنة مثلها، لكنها مَن أحبها بحق؛ مَن كان معجبًا بها، وفخورًا بها ـ هذه الابنة كافأته بمثل هذا العار، وهذا الخزي، ولم يعد يستطيع مواجهة عيون الرجال!

تذكر وقت أن كانت لا مجرد طفلته وأحد أفراد أسرته، بل حبيبته، وفرحته وكبريائه. رآها مرةً أخرى، وهي صغيرة ابنة الثامنة أو التاسعة، مشرقة، لماحة، مفعمة بالحياة، متهورة، ورشيقة، ذات عينين سوداوين لامعتين وشعر بني أحمر منساب. تذكر كيف كانت معتادة على القفز على ركبتيه واحتضانه، ودغدغة رقبته؛ وكيف كانت تضحك، ولا

تبالي باعتراضه، وتستمر في دغدغته، وتقبل شفتيه، وعينيه، ووجنتيه. كان من الطبيعي أن يعارض كل تلك المظاهر، لكن هذا الحب المتهور كان يؤثر فيه، وكثيرًا ما كان يخضع لمداعباتها. تذكر أيضًا كم كانت عذبة أن يقوم بمداعبتها. يتذكر كل ذلك، حينما أصبحت تلك الطفلة العذبة ما هي عليه الآن، مخلوقًا لا يستطيع أن يفكر فيه بدون اشمئزاز.

تذكر أيضًا الوقت الذي تحولت تلك الإبنة إلى مرحلة الأنوثة، وذلك الشعور الغريب بالخوف والغضب، الذي كان ينتابه عندما أصبح مدركًا أن الرجال ينظرون لها كامرأة. فكر في حبه الغيور عندما أتت إليه بدلال مرتدية ملابس الحفل الراقص، وهو يعرف أنها جميلة.

خشي من النظرات المشبوبة التي تحط عليها، والتي لم تفهمها بل كانت مبتهجة بها. "نعم"، فكَّر، "تلك هي خرافة نقاء النساء! إنه العكس تمامًا، فهن لا يعرفن الخزي ـ ينقصهن ذلك الإحساس". تذكر ـ بصورة عصية على التفسير، بالنسبة له ـ كيف رفضت شخصين ممتازين تقدما للزواج بها. أصبحت مفتونة أكثر فأكثر بنجاحها في الوسط المترف الذي كانت تعيش فيه.

لكن هذا النجاح لم يستمر طويلاً. مر عام، ثم عامان، ثم ثلاثة. أصبحت شخصية مألوفة، جميلة ـ لكن أعوام الشباب الأولى وَلَّت، وأصبحت ـ إلى حدٍّ ما ـ مثل قطعة أثاث فى حجرة الرقص. تذكر ميخائيل إيڤانوڤيتش كيف أدرك أنها على أعتاب العنوسة، ولم تكن لديه سوى رغبة وحيدة بالنسبة لها. لابد أن يزوجها في أسرع وقت ممكن، ربما ليس بمستوى ما كان يرغب ويرتب من قبل، لكن بقدر من الاحترام.

لكن كان يبدو له أنها تتصرف بكبرياء محفوف بالوقاحة. وإذ تذكر ذلك، تصاعد غضبه منها بصورة شرسة أكثر فأكثر. يفكر في رفضها للكثير من الأشخاص الممتازين، فقط لتنتهي في هذا العار. "آه، آه!" تأوه مرةً أخرى.

توقف عن التفكير، وأشعل سيجارة، وحاول التفكير في أشياء أخرى. سيرسل لها المال، بدون أن يدعها تراه أبدًا. لكن الذكريات عاودته مرةً ثانية. تذكر- لم يكن ذلك منذ أمد بعيد للغاية، لأنها حينها كانت قد تخطت العشرين- بداية غزلها مع فتى فى الرابعة عشرة من عمره، طالب عسكري، يقيم معهم في البلدة. فقد جعلت الفتى شبه مجنون؛ كان يبكي في ذهوله. ثم كيف قامت بتوبيخ أبيها بقسوة، ببرود، بل حتى بوقاحة، عندما أرسل بالفتى بعيدًا، ليضع حدًّا لهذه العلاقة الغبية. كان يبدو أنها قد اعتبرت ذلك إهانة لها. ومنذ ذلك الوقت، انجرف الأب والابنة إلى عداء بيِّن.

"لقد كنتُ على حق"، قال لنفسه. "إنها امرأة خبيثة ووقحة".

وبعدها، كذكرى أخيرة مرعبة، كان هناك ذلك الخطاب من موسكو، الذي كتبت فيه أنها لا تستطيع العودة إلى البيت؛ وأنها امرأة بائسة، ومنبوذة، ولا تطلب سوى الغفران لها ونسيانها. ثم تداعت على ذاكرته مجموعة بشعة من المشاهد مع زوجته؛ ظنونهما وشكوكهما، التي أصبحت يقينًا. فقد حدثت الطامة في فنلندا، حيث سمحا لها بزيارة لخالتها؛ والمجرم كان سويديًّا تافهًا، طالبًا، ذا رأس فارغ، مخلوق بلا قيمة- وتزوجا.

كل تلك المشاهد انتابته الآن فيما كان يخطو إلى الأمام وإلى الوراء على سجادة حجرة نومه، مستدعيةً حبه القديم لها، وفخره بها. تراجع في رعب أمام الحقيقة غير المفهومة لسقوطها، وكرهها بسبب العذاب الذي سببته له. تذكَّر الحوار بينه وبين زوجة أخيه، وحاول تخيل كيف يمكن أن يسامحها. لكن ما إن ظهرت فكرة "هو"، حتى تصاعد في قلبه الذعر، والاشمئزاز، والكبرياء الجريح. تأوه بصوت عال، وحاول التفكير في شيء آخر.

"لا، هذا مستحيل؛ سأسلم المال إلى بيتر ليعطيها مبلغًا شهريًّا. وبالنسبة لي، فلم تعد لي ابنة".

ومن جديد، سيطر عليه شعور غريب: مزيج من الشفقة على النفس لدى تذكر حبه لها، والغضب منها لما سببت له من عذاب.

II

خلال العام الماضي، لا شك أن ما عاشته وعانته ليزا كان أكثر مما عاشته وعانته خلال الخمس والعشرين عامًا السابقة. فجأةً، أدركت خواء حياتها كلها. برزت أمام عينيها دناءة وقذارة حياتها في البيت، ووسط الأغنياء في سانت بطرسبرج- هذا الوجود الحيواني الذي لا يسبر الأعماق أبدًا، لكنه كان يلامس فحسب ضحالات الحياة.

كان هذا كافيًا جدًّا لعام، أو عامين، وربما حتى لثلاثة أعوام. لكن عندما استمر ذلك لسبع أو ثمانية أعوام، بحفلاته، الحفلات الراقصة، وحفلات الموسيقى، وحفلات العشاء؛ بملابسها ومصففي الشعر من أجل عرض مفاتن الجسد؛ مع المعجبين صغارًا وكبارًا على السواء ممن يسكنهم- فيما يبدو- حقٌ ما غير محدود في امتلاك كل شيء، أو الضحك علي كل شيء؛ ومع شهور الصيف التي يتم قضاؤها من كل عام بنفس الطريقة، ويتم التخلي عن كل شيء إلا السعادة المزيفة، وحتي الموسيقي والقراءة التي تلامس بالكاد مشاكل الحياة، لكنها لا تجد لها حلولاً أبدًا- كل هذا الذي لا يعد بشيء من التغيير، ويفقد سحره أكثر فأكثر- بدأت في اليأس. كان لديها مزاج محبط حتي أصبحت تشتاق إلى الموت.

وجه أصدقاؤها أفكارها إلي الجمعيات الخيرية. فهي- من ناحية- قد رأت الفقر الحقيقي والمثير للاشمئزاز، والفقر الزائف المثير حتى لاشمئزاز وشفقة أكبر؛ ومن ناحية أخري، فقد رأت اللامبالاة الرهيبة من السيدة رئيسة الجمعية الخيرية التي جاءت في عربة وعباءات تكلف الآلاف. أصبحت الحياة بالنسبة لها غير محتملة، أكثر فأكثر. تاقت نفسها لشيء حقيقي، للحياة نفسها- وليس لمجرد دور في مسرحية الحياة، ليست تلك الحياة السطحية بلا قيمة. ما من أحد ينتمي إلى الحياة الحقيقية. كانت أحلي ذكرياتها هي حبها لذلك الفتي الصغير طالب العسكرية، كوكو. فقد كانت نزوة جميلة، أمينة، ومستقيمة، والآن لا وجود لمثلها. ولن يمكن أن تكون. أصبحت أكثر فأكثر اكتئابًا، وفي هذا المزاج الكئيب ذهبت لزيارة خالتها في فنلندا. أعجبتها إلى حد كبير- باعتبارها تجربة

جديدة- المناظر والوسط الجديد، والناس المختلفون بغرابة عمن تعرفهم.

متي وكيف بدأ كل هذا، لا يمكنها أن تتذكر بوضوح. كان لدى خالتها ضيف آخر، من السويد. كان يتحدث عن عمله، ومَن يعملون معه، وأحدث الروايات السويدية. بطريقةٍ ما، لم تعرف- هي نفسها- كيف بدأ ذلك الافتتان الرهيب للنظرات والابتسامات، الذي لا يمكن أن تعبر عن معناه الكلمات.

تلك النظرات والابتسامات كشفت لكل واحد منهما، لا روح الآخر فحسب، وإنما سِرًّا ما حيويًّا وكونيًّا. كل كلمة نطقا بها كانت تمنحها هذه الابتسامات مغزي مدهشًا. والموسيقي أيضًا- عندما كانا يستمعان إليها معًا، أو يغنيان معًا- أصبحت مفعمةً بنفس المغزى العميق. لذلك، هكذا، أيضًا، كانت كلمات الكتب التي كانا يقرآنها معًا بصوت مسموع. كانا يتجادلان أحيانًا، لكن في اللحظة التي تلتقي فيها العيون، أو تومض بينهما ابتسامة، ينزوي النقاش بعيدًا. كانا يحلقان فيما رواءه إلى مستوى أعلى مكرس لنفسيهما.

كيف وصلا إلى هذا الحد، وكيف ومتي ظهر لأول مرة الشيطان- الذي تمكن منهما معًا- خلف تلك الابتسامات والنظرات، لا يمكنها أن تحدد. لكن، عندما تمكن منها الخوف في البداية، كانت الخيوط غير المرئية التي تربط بينهما متشابكة للغاية إلى حد أنها لم تكن تمتلك القوة على تحرير نفسها. كانت تعتمد عليه فحسب، وعلي شرفه. كانت تأمل في ألا يستخدم قوته؛ ومع ذلك، فقد كانت ترغب في ذلك، بطريقة غامضة، طوال الوقت.

كان ضعفها علي أشده، فلم يكن لديها ما يدعمها في صراعها. كانت ضجرة من حياة المجتمع، وعاطفتها تجاه والدتها كانت منعدمة. أما والدها، هكذا فكرت، فقد طردها بعيدًا عنه، وكانت مشتاقة بصورة مشبوبة للحياة، وأن تقطع علاقتها باللعب. الحب، حب المرأة المطلق للرجل، كان يحمل لها وعدًا بالحياة. وطبيعتها المشبوبة، القوية، أيضًا، كانت تجرجرها إلي الأبعد. رأت الوعد بالحياة التي كانت تتمناها في القامة الطويلة، القوية لهذا الرجل، بشعره الجميل، وشاربه الخفيف المقلوب إلى أعلى، وتحته كانت تشرق ابتسامة جذابة ومثيرة. ثم إن تلك النظرات والابتسامات، والأمل في شئ جميل فوق الخيال، أدوا- مثلما كان من المحتم أن يؤدوا- إلى ما كانت تخشاه، لكنها كانت- بصورة لاواعية- تنتظره.

فجأةً، كل ما كان جميلاً، مرحًا، روحانيًّا، ومفعمًا بوعود المستقبل، تحول إلي حيواني، ودنيء، وحزين، ويدفع إلى اليأس.

نظرت إلى عينيه وحاولت الابتسام، متظاهرة بأنها لا تخشى شيئًا، وأن كل الأمور على ما يرام؛ لكن في أعماق روحها، كانت تعرف أن كل شيء قد انتهى. أدركت أنها لم تجد فيه ما كانت تبحث عنه؛ ذلك الذي عرفته ذات مرة في نفسها وفي كوكو. أخبرته بأنه لابد أن يرسل إلى أبيها ليطلب يدها للزواج. وهذا ما كان قد وعدها به؛ لكنها عندما تقابلا فيما بعد أخبرها بأنه من المستحيل أن يكتب لأبيها الآن. رأت شيئًا مبهمًا وهاربًا في عينيه، وبدأ انعدام الثقة فيه ينمو بداخلها. في اليوم التالي كتب إليها، ليخبرها بأنه متزوج بالفعل، بالرغم من أن زوجته قد تركته منذ فترة طويلة؛ وأنه يعرف أنها ستحتقره بسبب الخطأ الذي

اقترفه في حقها، وناشدها أن تسامحه. طلبت منه المجيء لمقابلتها. قالت إنها تحبه؛ وإنها تشعر أن ارتباطهما أبدي سواء كان متزوجًا أم لا، وأنها لن تتركه أبدًا. في المرة التالية، التقيا وأخبرها أنه ووالديه فقراء، إلى حد أنه لن يستطيع أن يحقق لها إلا معيشة متواضعة. ردت بأنها لا تحتاج شيئًا، وأنها مستعدة إلى أن تذهب معه- على الفور- حيثما يشاء. سعي جاهدا لإثنائها، وهو ينصحها بأن تنتظر؛ ولذلك انتظرت. لكن أن تعيش بذلك السر، مع لقاءات عابرة، والتراسل معه، بعيدًا عن أعين عائلتها، كان يعذبها، وأصرت مرةً أخرى علي أنه لابد أن يأخذها بعيدًا. في البداية، عندما عادت إلي سانت بطرسبرج، كتب لها خطابًا يعدها فيه بأنه سيأتي، ثم توقفت الخطابات، ولم تعد تعرف عنه المزيد.

حاولت العودة إلى حياتها القديمة، لكن هذا كان مستحيلاً. سقطت مريضة، وكل جهود الأطباء كانت غير مجدية؛ أثناء يأسها عزمت على قتل نفسها. لكن كيف يمكن أن تقدم على ذلك، بحيث تجعل موتها طبيعيًا؟ لقد رغبت حقًا في التخلص من حياتها، وتخيلت أنها قد صممت بلا تردد على تلك الخطوة. لذلك، حصلت على بعض السُم، وصبته في كوب، وفي لحظة كانت ستجرعه، لولا ظهور ابن أختها الصغير ذو الخمس سنوات في تلك اللحظة، ليريها لعبته التي أحضرتها له جدته. ربتت على الطفل، وفجأةً- إذ توقفت لبرهة- انفجرت في البكاء.

سيطرت عليها فكرة أنها ربما تصبح أمًا- هي أيضًا- حتى لو لم يتزوجها، وتلك الرؤية للأمومة جعلتها تتأمل روحها لأول مرة. بدأت في التفكير، لا فيما سيقوله الآخرون عنها، بل فقط في حياتها الخاصة.

فأن تقتل نفسها بسبب ما يمكن أن يقوله العالم أمر سهل؛ لكنها عندما رأت حياتها ستنسحب من العالم، أصبحت فكرة إنهاء حياتها أمرًا غير وارد. ألقت بالسُم بعيدًا، وتوقفت عن التفكير فى الانتحار.

خلال ذلك بدأت حياتها. كانت حياة حقيقية، وبالرغم من عذاباتها والإمكانية التي مُنحت لها، فلم يكن لها أن تتراجع. بدأت تؤدي الصلوات، لكن لم تكن ثمة راحة من الصلاة؛ وبدت المعاناة- بالنسبة لها- أقل من معاناة والدها، الذي أحست بحزنه وتفهمته.

مضت الشهور ثقيلة، ثم حدث شيء مفاجئ غير حياتها تمامًا. ذات يوم، وهي تعمل مستلقية على لحاف، أحست بإحساس غريب. لا- بدا مستحيلاً. جلست بلا حراك. أيمكن أن يكون هو؟ ناسيةً كل شيء، خسته وخداعه، وكثرة شكوى أمها وحزن أبيها، ابتسمت. ارتجفت عندما تذكرت أنها كانت على وشك أن تقتله، وأن تقتل نفسها معه.

حصرت أفكارها الآن في أن تبتعد- في مكانٍ ما حيث يكتمل حمل طفلها- وتصبح أمًّا بائسة، مثيرة للشفقة، ومع ذلك: أُم. على نحوٍ ما، أعدت ورتبت كل شيء، تاركة بيتها لتستقر فى مدينة ريفية بعيدة، حيث لا يمكن لأحد أن يعثر عليها، وحيث اعتقدت أنها ستكون بعيدة عن أهلها. لكن، لسوء حظها، كان لعمها لقاء في تلك البلدة، وهو أمر لم يكن ممكنا أن يكون في حسبانها. لأربعة أشهر أقامت مع قابلة- ماريا إيڤانوڤنا؛ وعندما علمت أن عمها قد أتى إلى المدينة، كانت تستعد للفرار إلى مخبأ أكثر بُعدًا.

III

في صباح اليوم التالي، نهض ميخائيل إيڤانوڤيتش مبكرًا. دخل حجرة مكتب أخيه، وسلمه الشيك، به مبلغ من المال طلب من أخيه أن يدفع منه دفعات شهرية لابنته. سأل عن موعد وصول القطار السريع المتوجه إلى سانت بطرسبرج. سيغادر القطار فى السابعة مساء، مما يسمح له بتناول العشاء مبكرًا قبل الرحيل. تناول إفطاره مع زوجة أخيه، التي أمسكت عن ذكر الموضوع الذي كان يؤلمه، ونظرت إليه بخجل فحسب؛ وبعد الإفطار خرج لتمشيته الصباحية المعتادة.

تبعته ألكسندرا ديميتريڤنا إلى الردهة.

"فلتذهب إلى المنتزه العام، ميخائيل- هناك مناظر ساحرة، وقريب تمامًا من **كل شيء**"، قالت، وهي تقابل نظراته الكئيبة بنظرة تعاطف.

عمل ميخائيل إيڤانوڤيتش بنصيحتها وذهب إلى المنتزه العام، الذي كان قريبا جدًّا من **كل شيء**، وتأمل في ضيق غباء، وعناد، وقسوة المرأة".

"إنها- في الحد الأدنى- ليست حزينة من أجلي"، فكر في زوجة أخيه. "بل إنها لا تستطيع حتى أن تتفهم حزني. ولكن ماذا صدر منها؟" فكَّر فى ابنته. "فهي تعرف ماذا يعني كل هذا لي- العذاب. يا لها من كارثة تحل في شيخوخة المرء! بها سيقصر عمري! لكن من الأفضل أن أنتهي من ذلك عن أن أتحمل هذا العذاب. كل ذلك من *أجل العيون الجميلة لتلك الشريرة*- آه!"، تأوه؛ وتصاعدت داخله موجة من الغضب والكراهية،

حين فكر فيما سيقال في المدنية عندما يعرف كل الناس بالموضوع. (ولا شك أن كلهم قد عرفوا الآن). تملكه مثل هذا الشعور بالغضب لدرجة أنه كان يود لو أن يقحمه في رأسها، ويجعلها تدرك جُرم ما فعلته. هؤلاء النساء لا يدركن أبدًا. "إنه قريب من **كل شيء**"، فجأةً تذكر، وأخرج مفكرته، ووجد عنوانها. ڤيرا إيڤانوڤنا سلڤيستروڤا، شارع كوكونسكايا، منزل أبروموڤ. كانت تعيش بهذا الاسم. ترك المنتزه ونادى على تاكسي.

"مَن الذي تريد أن تراه، يا سيدي؟" سألته القابلة، ماريا إيڤانوڤنا، عندما ترجل في الممر الضيق المنحدر للدرَج الخانق.

"هل تعيش السيدة سلڤيستروڤا هنا؟"

"ڤيرا إيڤانوڤنا؟ نعم؛ ادخل، من فضلك. لقد خرجت للتو؛ ذهبت إلي المتجر القريب من الناصية. لكنها ستعود خلال دقيقة".

تبع ميخائيل إيڤانوڤيتش القوام القوي لماريا إيڤانوڤنا إلي صالة استقبال ضيقة، ومن داخل الحجرة المجاورة أتت صرخات طفل، يبدو غاضبًا وحادًّا، فأفعمه هذا الصراخ بالاشمئزاز. مزقته تلك الصرخات مثل سكين.

اعتذرت ماريا إيڤانوڤنا، ودخلت الحجرة، وسمع تهدئتها للطفل. هدأ الطفل، ثم عادت إليه.

"إنه طفلها؛ ستعود خلال دقيقة. أنت صديق لها، علي ما أعتقد؟"

"نعم- صديق- ولكن أظن أنه من الأفضل أن أعود فيما بعد"، قال

ميخائيل إيڤانوڤيتش وهو يستعد للخروج. كان صعب الاحتمال للغاية، هذا الاستعداد لمقابلتها، وبدا أي تفسير مستحيلاً.

ما إن استدار ليغادر حتى سمع خطوات سريعة خفيفة علي الدرَج، وتعرف على صوت ليزا.

"ماريا إيڤانوڤنا۔ هل كان يبكي وأنا بالخارج۔ كنت۔"

حينها رأت أباها. سقطت من يديها اللفافة التي كانت تحملها.

"أبي!" صاحت، وتوقفت عند المدخل، شاحبة مرتعشة.

ظل واقفًا بلا حراك، يحدق فيها. لقد أصبحت نحيفة جدًّا. وكانت عيناها أكثر اتساعًا، وأنفها أكثر حدة، ويداها هزيلتان ومرهقتان. لم يعرف ماذا يفعل، ولا ماذا يقول. نسي كل حزنه علي عاره. لم يشعر سوى بالحزن، حزن لانهائي عليها؛ حزن علي نحافتها، علي ملابسها الرثة البائسة؛ والأكثر من ذلك، على وجهها المثير للشفقة وعينيها المتوسلتين.

"أبي۔ سامحني"، قالت، وهي تتجه إليه.

"سامح.. سامحني"، غمغم؛ وبدأ ينتحب كالأطفال، ويقبل وجهها ويديها، ويبللهم بدموعه.

في إشفاقه عليها فهم نفسه. وعندما رأي نفسه في هذا الموقف، أدرك كيف اخطأ بحقها، كيف كان مذنبًا بكِبره وبروده، حتى فى غضبه منها. سرّه أن المذنب كان هو، وأنه ليس هناك ما يسامحها عليه، لكنه هو نفسه من كان يحتاج إلى المغفرة. أخذته إلي حجرتها الصغيرة، وأخبرته كيف

عاشت؛ لكنها لم تظهر له الطفل، ولم تذكر الماضي، مدركةً كم سيؤلمه ذلك.

أخبرها أنها لابد أن تعيش بطريقة مختلفة.

"نعم؛ لو كان بمقدوري فحسب أن أعيش في هذه البلدة"، قالت.

"سوف نناقش ذلك"، قال. فجأةً بدأ الطفل في العويل والصراخ. فتحت عينيها علي اتساعهما؛ ودون أن تبعدهما عن وجه أبيها، ظلت مترددة وبلا حراك.

"حسنًا- أعتقد أنك لابد أن ترضعيه"، قال ميخائيل إيڤانوڤيتش، وهو عابس من عناء النسيان.

نهضت، وفجأةً تملكتها فكرة جامحة بأن تريه مَن أحبته بعمق بالغ، ذلك الشيء الذي تحبه الآن أكثر من أي شيء في العالم. لكنها نظرت أولاً إلي وجه أبيها. هل سيغضب أم لا؟ لم يكشف وجهه أي غضب، فقط يعبر عن المعاناة.

"نعم، اذهبي، اذهبي"، قال؛ "فليباركك الرب. نعم، سآتي غدًا مرةً ثانية، وسنقرر معًا. إلي اللقاء، يا حبيبتي- إلي اللقاء".

مرةً أخري، وجد غصة في حلقه يصعب ابتلاعها.

عندما عاد ميخائيل إيڤانوڤيتش إلي منزل أخيه، اندفعت ألكسندرا ديميتريڤنا في الحال تجاهه.

"حسنًا؟"

"حسنًا؟ لا شيء".

"هل رأيت؟" سألته، وهي تخمن من تعبيرات وجهه أن شيئًا ما قد حدث.

"نعـم"، رد باختـصار، وبـدأ في البكـاء. "إنـني أشـيخ وأزداد غبـاءً"، قال، وهو يسيطر على انفعالاته.

"كلا؛ إنك تزداد حكمة ـ حكمة بالغة".

الشَّــمعة

سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: عَيْنٌ بِعَيْنٍ وَسِنٌّ بِسِنٍّ.
وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لاَ تُقَاوِمُوا الشَّرَّ.

إنجيل متى، الإصحاح الخامس
الآيات 38، 39

كان ذلك فى عصر الرِّق- لأعوام كثيرة سبقت تحرير ألكسندر الثاني لستين مليونًا من العبيد عام 1862. في تلك الأيام كان يحكم الناس أنواعٌ مختلفة من الأسياد. لم يكن الذين يتذكرون الرب قليلي العدد، ليعاملوا عبيدهم بطريقة إنسانية، وليس كحيوانات لتحميل الأثقال، بينما كان هناك آخرون نادرًا ما يقومون بأي سلوك فيه نوع من الكرم أو الطيبة؛ لكن الأكثر همجية وطغيانًا من الجميع هم هؤلاء الذين كانوا عبيدًا من قبل، ونشأوا فى الوحل وأصبحوا أمراء.

كانت تلك الطبقة الأخيرة هي التي جعلت الحياة عبئًا فعليًا لمن كانوا

سيئي الحظ بما يكفي لأن يكونوا تحت سلطانهم. وقد نشأن الكثيرون منهم في صفوف الفلاحين، ثم أصبحوا مشرفين على ضيعات النبلاء.

كان الفلاحون مُجبرين على أن يعملوا لحساب سادتهم عددًا محددًا من الأيام أسبوعيًّا. كانت هناك وفرة فى الأراضي والمياه، وكانت التربة خصبة وغنية، فيما كانت المروج والغابات تكفي لسد حاجات كلٍّ من الفلاحين وأسيادهم.

كان ثمة أحد النبلاء الذي اختار واحدًا من الفلاحين ليكون مشرفًا على إحدى ضياعه. وبمجرد أن مُنحت سلطة الإدارة إلى هذا المشرف الجديد حتى بدأ في ممارسة أبشع أشكال القسوة على العبيد الفقراء الذين كانوا تحت سيطرته. وبالرغم من أن هذا الرجل لديه زوجة وابنتان متزوجتان، ولديه من المال الوفير ما كان يكفيه ليعيش سعيدًا، بدون أن ينتهك حرمة الرب أو الإنسان بأي شكل، لكنه كان متشبعًا بالحقد والغيرة لدرجة الغرق فى الخطيئة.

بدأ ميخائيل سيميونوڤيتش اضطهاده بإجبار الفلاحين على العمل في الضيعة عددًا من الأيام في الأسبوع تزيد عن الأيام التي يلزمهم بها القانون. شيد فناء لتصنيع الطوب، حيث أجبر الرجال والنساء على القيام بأعمال مُجهدة، ليبيع الطوب لحسابه.

ذات يوم، أرسل العبيد المجهدون وفدًا إلى موسكو للشكوى من هذه المعاملة إلى سيدهم، لكنهم عادوا بلا رد يرضيهم. عندما عاد الفلاحون البؤساء منفطري القلب من النبلاء، قرر المشرف أن يثأر من جرأتهم بالذهاب لمن هو أعلى منه للمطالبة بالإصلاح، فأصبحت حياتهم وحياة

رفافقهم الضحايا أكثر بؤسًا من ذي قبل.

كان من بين العبيد بعض الخونة المغالين الذين يمكن أن يتهموا رفاقهم بأفعال مشينة، ويبذروا الشقاق بين الفلاحين، وفيما يستشيط ميخائيل غضبًا، يعيش الفلاحون الخاضعون له حياة مليئة بالخوف. وعندما يمر المشرف بالقرية يسرع الناس بالاختباء، كأنما يفرون من وحش بري. وإذ يرى هذا الرعب الذي ضربه فى قلوب الفلاحين، أصبحت معاملة ميخائيل لهم أكثر انتقامية، وبسبب العمل المفرط والإهانة أصبح حال العبيد الفقراء عسيرًا حقًّا.

كان هناك متسع من الوقت للفلاحين- حين شارفوا اليأس- أن يدبروا وسائل ليخلصوا أنفسهم من وحش غير إنساني من قبيل سيميونوڤيتش، وهكذا بدأ هؤلاء التعساء في التفكير في ما إذا كان هناك ما يمكنهم أن يفعلوه ليريحهم من نير عبوديتهم غير المحتمل. عقدوا اجتماعات صغيرة في أماكن سرية ليشكوا بؤسهم وحالتهم المزرية ويتناقشون مع بعضهم حول الطريقة المثلى للتصرف. وبين الحين والحين، كان أشجع المجتمعين ينهض ويخاطب رفاقه بهذه النبرة: "كم من الوقت سيمكننا أن نتحمل هذا الوغد ليتحكم فينا؟ فلنضع حدًّا لذلك في الحال، لأنه من الأفضل لنا أن نموت على أن نعاني. وبالتأكيد فليست خطيئة قتل ذلك الشيطان المتمثل فى صورة إنسان".

وحدث ذات مرة، قبل أجازات عيد الفصح، أن تم عقد واحد من تلك الاجتماعات فى الغابة، حيث أرسل ميخائيل عبيده ليقوموا بإحدى المهام لسيدهم. في الظهيرة تجمعوا لتناول غدائهم ولعقد المشورة. "لماذا لا

يمكننا أن نغادر الآن"، قال أحدهم. "قريبًا جدًّا سنتقلص إلى لا شيء. فنحن بالفعل نعمل حتى الموت تقريبًا ـ بلا أية استراحة، ليلاً أو نهارًا، سواء نحن أو زوجاتنا الفقيرات. وإذا ما تم عملٌ ما بطريقة لا تسره تمامًا، فسيجد خطأ ما، وربما جلد بعضنا حتى الموت ـ مثلما كانت الحال مع سايمون الفقير، الذي قتله منذ وقت ليس ببعيد. ومؤخرًا فقط تم تعذيب أنيسيم بالكي بالحديد حتى الموت. وبالتأكيد لا يمكننا أن نتحمل ذلك مدةً أطول".

"نعم"، قال آخر، "فما جدوى الانتظار؟ فلنتصرف فى الحال. فهذه الليلة سيكون ميخائيل هنا، وأنا على يقين من أنه سيهيننا بصورة تدعو للخزي. فلندفعه ـ آنذاك ـ من على فرسه، وبضربة واحدة بفأس نعطيه ما يستحقه، وبذلك نضع حدًّا لمأساتنا. ويمكننا أن نحفر حفرة كبيرة وندفنه كالكلب، ولن يعلم أحد بما حدث له. فلنصل الآن إلى اتفاق ـ أن نقف معًا كرجل واحد، وألا يخون أحدنا الآخر".

كان آخر متحدث هو ڤاسيلي مينابيف، الذي كان لديه من مبررات الشكوى من قسوة ميخائيل بأكثر من أي عبد من رفاقه. فقد كان من عادة المشرف أن يجلده بقسوة أسبوعيًّا، وأيضًا أخذ زوجة ڤاسيلي لتخدم عنده كطاهية.

ومن ثَم، ففي المساء التالي للاجتماع في الغابة، وصل ميخائيل إلى الموقع على ظهر حصانه. وبدأ ـ فى الحال ـ في تصيد الأخطاء فى كيفية القيام بالعمل، والتذمر من أن بعض أشجار الليمون قد قُطعت.

"لقد أخبرتكم بألا تقطعوا أية شجرة ليمون!" صرخ المشرف

الغاضب. "من فعل ذلك؟ أخبروني، في الحال، وإلا فسأجلدكم جميعًا!"

بعد الاستقصاء، أُشير إلى فلاح يُدعى سيدور باعتباره الشخص المذنب، وتم صفعه على وجهه بقسوة. عاقب ميخائيل أيضًا ڤاسيلي بقسوة أيضًا، لأنه لم يقم بما يكفي من عمل، وبعدها غادر السيد إلى منزله في أمان.

في المساء، اجتمع العبيد مرةً ثانية، وقال ڤاسيلي المغلوب على أمره: "أي نوع من البشر نحن، على أية حال؟ نحن مجرد عصافير، ولسنا رجالاً على الإطلاق! نتفق على أن نقف جنبًا إلى جنب، لكن ما إن يأتي وقت الفعل حتى نجري كلنا ونختبئ. فذات مرة، تآخر سرب عصافير على أحد الصقور، لكن بمجرد أن ظهر الطائر الجارح حتى كانوا يتسللون في الحشائش. وإذ يختار واحدًا من أفضل العصافير، كان الصقر يأخذه بعيدًا ليأكله، وبعدها يظهر الآخرون يصرخون "تويي- تويي!" فيكتشفون أن واحدًا منهم قد اختفى. "مَن الذي قُتِل؟" يسألون. "ڤانكا! حسنًا، إنه يستحق ذلك". وأنتم، يا أصدقائي، تسلكون بنفس الطريقة. فعندما هاجم ميخائيل سيدور، كان عليكم أن تلتزموا بعهدكم. لماذ لم تثوروا، وبضربة واحدة تضعوا نهاية له ولمأساتنا؟"

كان لتأثير هذا الحديث أن يجعل الفلاحين أكثر تصميمًا في عزمهم على أن يقتلوا مشرفهم. وكان الأخير قد أعطاهم أوامر بأن عليهم الاستعداد للحرث خلال أيام أجازة عيد الفصح، وأن يبذروا الحقول بالشوفان، فيما أصاب العبيد الحزن، وتجمعوا في منزل ڤاسيلي ليعقدوا اجتماعًا آخر للسخط. "إذا كان حقًا قد نسي الرب"، قالوا، "وسيستمر

في ارتكاب مثل هذه الجرائمه نحونا، فمن الضروري حقًا أن نقتله. وإن لم نفعل، فلنهلك جميعًا، لأنه لا فرق بالنسبة لنا الآن".

لقي هذا البيان اليائس، على أية حال، معارضة قوية من محب للسلام يُدعى بيتر ميخاييف. "أيها الأخوة"، قال، "إنكم تفكرون في اقتراف خطيئة كبرى. إن إزهاق روح إنسان أمر بالغ الخطورة. بالطبع، من السهل إنهاء حياة إنسان فانٍ، لكن ماذا سيصيب أرواح مَن ارتكبوا هذا الفعل؟ ولو استمر ميخائيل في معاملته الظالمة لنا، فإن الرب بكل تأكيد سيعاقبه. لكن، يا أصدقائي، علينا بالصبر".

هذا الكلام المهادن لم يؤد إلا إلى زيادة غضب ڤاسيلي. قال: "يكرر بيتر تلك العبارة دائمًا، "من الخطيئة أن تقتل أي شخص". وبالتأكيد فالقتل خطيئة؛ لكن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار نوع الشخص الذي نتعامل معه. فنحن نعرف جميعًا أن من الخطأ قتل رجل صالح، لكن حتى الرب سيزهق روح كلب مثل هذا. إنه واجبنا، وإذا ما كان لدينا أي حب للإنسانية، أن نطلق الرصاص على كلب مجنون. فالخطيئة هي أن نتركه حيًا. إذن، وبالتالي، فإذا ما كان علينا أن نعاني، فليكن ذلك لمصلحة الناس- وسيشكروننا على ذلك. وإذا ما ظللنا هادئين أكثر من ذلك فسيكون الجَلد هو مكافأتنا الوحيدة. كلامك بلا معنى، يا ميخاييف. لمَ لا تفكر في الخطيئة التي سنرتكبها إذا ما عملنا خلال عطلات عيد الفصح- فهل سترفض أن تعمل إذن؟"

"حسنًا، إذن"، أجاب بيتر، "إذا ما أرسلوني للحرث فسأذهب. لكني لن أذهب بإرادتي الحرة، وسيعلم الرب مَن مرتكب الخطيئة، وسيعاقب

الخاطئ بالتالي. لكن يجب أن لا ننساه. أيها الأخوة، أنا لا أعطيكم رؤيتي للأمور فقط. فقانون الرب هو ألا نقابل الشر بالشر؛ حقًا، فلو حاولتم أن تخمدوا الشر بتلك الطريقة فسيرتد عليكم بأقصى عنف. وليس من الصعب عليكم قتل الرجل، لكن دمه سيلطخ أرواحكم بالتأكيد. ق تعتقدون أنكم قتلتم رجلاً شريرًا- أنكم قد تخلصتم من الشر- لكنكم سرعان ما ستكتشفون أن بذور شر أكبر قد تمت زراعتها بداخلكم. فإذا أردتم سوءًا فسيرتد عليكم بالتأكيد".

ولأن بيتر لم يكن يفتقر إلى متعاطفين بين الفلاحين، فقد انقسم العبيد الفقراء بالتالي إلى مجموعتين: أتباع ڤاسيلي، وهؤلاء الذين يتبنون آراء ميخاييف.

في يوم أحد الفصح توقف العمل. عند حلول المساء، جاء عجوز من قصر النبيل إلى الفلاحين، وقال: "يأمر مشرفنا الأعلى، ميخائيل سيميونوڤيتش بأن تذهبوا غدًا لحرث الحقل من أجل الشوفان". بعد ذلك، تجول الموظف داخل القرية ووجه الرجال للإعداد لعملهم فى الغد- البعض ناحية النهر والآخرون على الطريق. انقهر الفقراء بالحزن، وأغلبهم ذرف الدموع، لكن أحدًا لم يجرؤ على عصيان أوامر سيدهم.

في صباح إثنين الفصح، وفيما كانت أجراس الكنيسة تُقرع داعيةً السكان لأداء قدّاسهم، وفيما كان الآخرون يستعدون للاستمتاع بالعطلة، بدأ العبيد البؤساء عملهم فى حرث الحقل. نهض ميخائيل متأخرًا إلى حدٍّ ما وذهب فى جولة حول المزرعة. كان خدم المنزل في عملهم، وارتدوا ثيابهم المناسبة لذلك اليوم، فيما ذهبت زوجة ميخائيل

وابنتهما الأرملة (التي كانت فى زيارة لهما، كعادتها فى الأعياد) إلى الكنيسة وعادتا. كان بانتظارهم سماور يغلي، وبدأو شرب الشاى مع ميخائيل، الذي- بعدما أشعل الغليون- استدعى العجوز إليه.

"حسنًا"، قال المشرف، "هل أمرت الفلاحين بأن يحرثوا اليوم؟"

"نعم، سيدي، أمرتهم"، كانت إجابته.

"هل ذهبوا جميعًا إلى الحقل؟"

"نعم، سيدي، جميعهم. وقد وجهتهم إلى حيث يبدأون".

"جيد جدًا. لقد أعطيت الأوامر، لكن هل هم يحرثون بالفعل؟ اذهب حالاً وانظر، ويمكنك أن تقول لهم إنني سأكون هناك بعد العشاء. وأنتظر أن أجد كل محراثين قد أتمّا حرث فدان ونصف الفدان، وأن العمل قد تم على أكمل وجه؛ وإلا فسأعاقبهم بقسوة، بالرغم من عطلة العيد".

"إنني أسمع، سيدي، وأطيع".

انطلق العجوز ليذهب، لكن ميخائيل نادى عليه ليعود. بعد تردد لفترة قصيرة، بدا كأنه يشعر بقلق كبير، قال:

"على فكرة، استمِع إلى كل ما يقوله هؤلاء الأوغاد عني. فلا شك أن بعضهم يلعنني، وأريدك أن تنقل لي الكلمات حرفيًّا. أعرف كم هم أشرار. ولا يجدون العمل مبهجًا بأية حال. فهم يريدون أن يرقدوا طوال اليوم ولا يفعلون شيئًا. يريدون أن يأكلوا ويشربوا ويمرحوا أيام الأعياد، لكنهم ينسون أن الحرث إن لم يتم فسرعان ما سيكون قد فات الأوان.

إذن اذهب واستمع لما يقال، وانقله لي بالتفصيل. اذهب حالاً".

"إنني أسمع، سيدي، وأطيع".

وإذ استدار بظهره وركب الفرس، أصبح العجوز حالاً فى الحقل، حيث كان العبيد يعملون بكل جد.

وحدث أن كانت زوجة ميخائيل، وهي امرأة ذات قلب بالغ الطيبة، قد استمعت إلى الحوار الذي كان يديره زوجها مع العجوز. اقتربت منه، وقالت:

"صديقي العزيز، ميشينكا*، أتوسل إليك أن تقدر أهمية وجلال هذا اليوم المقدس. فلا ترتكب إثمًا، من أجل المسيح. دع الفلاحين الفقراء يذهبون لبيوتهم".

ضحك ميخائيل، لكنه لم يرد على طلب زوجته الإنساني. في النهاية، قال:

"أنتِ لم تُجلدي منذ فترة طويلة جدًّا، وأصبحتِ الآن وقحة لدرجة أن تتدخلي في أمور لا تخصك".

"ميشينكا"، قالت بإصرار، "لقد حلمت حلمًا مفزعا يتعلق بك. فمن الأفضل أن تدع الفلاحين يذهبوا".

"نعم"، قال؛ "إنني أتصور أنك قد سمنتِ كثيرًا في الآونة الأخيرة، فتظنين أنكِ لن تشعري بالسوط. فاحذري!"

---

* تصغير لإسم "ميخائيل".

وهو ينفث دخانه الساخن تجاه وجنتها بوقاحة، طرد ميخائيل زوجته من الحجرة، بعد أن أمر بعشائه. وبعد تناول وجبة دسمة من حساء الكُرنب، ولحم خنزير مشوي، وفطيرة باللحم، وحلوى باللبن، وجيلي، وفطائر محلاة، و ڤودكا، نادى على طاهيته وأمرها بأن تجلس بجواره وتغني له، وصاحب سيميونوڤيتش أغنياتها بالجيتار.

وفيما كان المشرف يتمتع هكذا إلى أقصى درجات الإشباع فى حفلته الموسيقية لطاهيته، عاد العجوز، منحنيًا انحناءة كبيرة لرئيسه، مقتربًا لتقديم المعلومات المطلوبة التي تتعلق بالعبيد.

"حسنًا"، سأل ميخائيل، "هل حرثوا؟"

"نعم"، أجاب العجوز؛ "لقد أتموا حرث حوالي نصف الحقل".

"ألا توجد أية أخطاء؟"

"ليست من النوع التي أستطيع اكتشافها. يبدو أن العمل قد تم على أكمل وجه. ويبدو بوضوح أنهم خائفون منك".

"كيف كانت التربة؟"

"جيدة جدًّا. كانت تبدو ناعمة جدًّا".

"حسنًا"، قال سيميونوڤيتش، بعد صمت، "ماذا قالوا عني؟ هل لعنوني، فيما أظن؟"

تردد العجوز شيئًا ما، فأمره ميخائيل أن يتكلم ويقول الحقيقة كاملة. "أخْبرني بكل شيء"، قال؛ "أريد أن أعرف كلماتهم بالضبط، ولو

أخبرتني بالحقيقة فسأكافئك؛ لكن لو أخفيت عني أي شيء فستُعاقب. هيا، يا كاثرين، صُبي له كأسًا من الڤودكا لتعطيه الشجاعة!"

بعد أن شرب نخبًا فى صحة رئيسه، قال العجوز لنفسه: "ليس خطئي أنهم لم يمدحوه. سأقول له الحقيقة". ثم استدار فجأةً ناحية المشرف وقال:

"إنهم يشْكون، يا ميخائيل سيميونوڤيتش! يشْكون بمرارة".

"لكن ماذا يقولون؟" سأله ميخائيل. "أخبرني!"

"حسنًا، قالوا شيئًا واحدًا، "إنه لا يؤمن بالرب"".

ضحك ميخائيل. "مَن قال هذا؟" سأل.

"يبدو أن هذا رأيهم بالإجماع". "لقد سيطر عليه شيطانه"، قالوا".

"جيد جدًّا"، ضحك المشرف؛ "لكن أخبرني ماذا قال كل واحد منهم. ماذا قال ڤاسيلي؟"

لم يرغب العجوز فى خيانة أهله، لكن لديه ضغينة ضد ڤاسيلي، وقال:

"لعنك أكثر مما لعنك الآخرون".

"لكن ماذا قال؟"

"من المرعب أن أكرره، يا سيدي. قال ڤاسيلي "إنه سيموت ككلب، بلا أية فرصة للتوبة!"

"آه، الحقير!" صاح ميخائيل متعجبًا. "سيقتلني لولا خوفه. وهو

كذلك، يا ڤاسيلي؛ سيكون لك حساب معنا. وتيشكا- هل نعتني بالكلب، على ما أظن؟"

"حسنًا"، قال العجوز، "كلهم يتحدثون عنك لكن ليس بكلمات الثناء؛ إنها وضاعة مني أن أعيد ما قالوه".

"وضاعة أم لا، لابد أن تخبرني، أقول لك!"

"بعضهم أعلن أنه لابد من كسر ظهرك".

بدا على سيميونوڤيتش أنه مستمتع للغاية، لأن ضحكته كانت صريحة. "سنرى من سيُقصم ظهره أولاً"، قال. "هل كان هذا رأى تيشكا؟ رغم أنني لا أتوقع أن يقولوا شيئًا طيبًا عنى، فلم أتوقع مثل تلك اللعنات والتهديدات. وبيتر ميخاييف- هل يلعنني أيضًا هذا الأحمق ؟"

"لا؛ لم يلعنك إطلاقًا. يبدو أنه الوحيد الصامت بينهم. ميخاييف فلاح حكيم جدًّا، ويدهشنى كثيرًا. وتصرفاته تدهش الفلاحين الآخرين أيضًا".

"ماذا فعل؟"

"فعل شيئًا متميزًا. كان يحرث بدأب، وعندما اقتربت منه سمعت شخصًا يغنى بطريقة لطيفة. نظرت بين الحارثين، لاحظت جسمًا زاهيًا يلتمع".

"حسنًا، وماذا كان هذا؟ أسرع!"

"كانت شمعة، بخمسة كوبيك، تلمع باشتعالها، والريح غير قادرة

على إطفائها. وكان بيتر ـ وهو يرتدي قميصًا جديدًا، يغني ترانيم جميلة وهو يحرث، وبغض النظر عما يفعل إلا أن الشمعة كانت دائمة الاشتعال. في حضوري، أصلح المحراث، وهو يهزه بشدة، لكن ذلك الشيء الصغير اللامع بين محراث وآخر ظل هادئًا".

"وماذا قال ميخاييف؟"

"لم يقل شيئًا ـ عدا أنه أدى لي تحية اليوم المقدس عندما رآني، وبعدها ذهب فى طريقه يغنى ويحرث كما كان من قبل. لم أقل له شيئًا، لكن، بالاقتراب من الفلاحين الآخرين، وجدتهم يضحكون ويهزأون من رفيقهم الصامت. "إنه إثم كبير أن تحرث فى يوم اثنين الفصح"، قالوا. "لن تحصل على الغفران من ذنبك حتى لو صليت طوال حياتك"".

"وميخاييف، ألم يقم بالرد عليهم؟"

"وقف لفترة طويلة، ليقول: "لابد أن يكون هنا سلام على الأرض ونوايا طيبة للإنسان"، ثم استأنف حرثه وغناءه، والشمعة تزداد اشتعالاً ولمعانًا أكثر من ذي قبل".

توقف الآن سيميونوفيتش عن السخرية، وإذ وضع الجيتار جانبًا، سقطت رأسه على صدره غارقًا فى أفكاره. أمر العجوز والطاهية أن ينصرفا، ثم دخل ميخائيل وراء ستارة وألقى بنفسه على السرير. كان يتنهد ويئن، كما لو كان فى مصيبة عظيمة، حين جاءت زوجته وتحدثت إليه بلطف. رفض أن يسمع، وهو يصيح متعجبًا:

"لقد قهرني، واقتربت نهايتي!"

"ميشينكا،" قالت المرأة، "انهض واذهب إلى الفلاحين فى الحقل. دعهم يذهبون إلى بيوتهم، وكل شيء سيكون على ما يرام. حتى الآن، اجتزت الكثير من المخاطر بلا أدنى خوف، لكنك الآن تبدو مذعورًا جدًّا".

"لقد قهرني!"، كررها. "وقد ضِعت!"

"ماذا تعني؟" سألته زوجته، بغضب. "إذا ذهبت وفعلت ما قلته لك فلن يكون هناك خطر. هيا، يا ميشينكا"، أضافت برقة؛ "سأجعلهم يعدون لك سرج الفرس فى الحال".

عندما وصل الفرس، أقنعت المرأة زوجها بأن يركبه،وينفذ طلبها فيما يتعلق بالعبيد. وحين وصل إلى القرية فتحت امرأة البوابة ليدخل، وبمجرد دخوله، وإذ رأى السكان المشرف الوحشي الذي يخافونه، فروا جميعًا ليختبئوا في بيوتهم،والحدائق،والأماكن المعزولة الأخرى.

في النهاية، وصل ميخائيل إلى البوابة الأخرى، ووجدها مغلقة أيضًا، وإذ كان عاجزًا عن فتحها بنفسه وهو على الحصان، طلب المساعدة بصوت عال. لم يستجب أحد لصياحه، فترجل وفتح البوابة، لكنه عندما أوشك على امتطاء حصانه من جديد، وكانت قدم واحدة فى السرج، أصاب الحصان الرعب من بعض الخنازير، وقفز إلى الجانب. سقط المشرف عبر السياج، واخترق وتد حاد بطنه، فسقط ميخائيل على الأرض مغشيًّا عليه.

حوالي المساء، عندما وصل العبيد إلى بوابة القرية، رفضت خيولهم الدخول. وإذ نظروا حولهم، وجد الفلاحون جثة مشرفهم مقلوبة على

وجهها فى بركة من الدماء، حيث سقط من أعلى السياج. كان بيتر ميخاييف الوحيد الذي تملكته الشجاعة الكافية ليترجل ويقترب من الجسد المنبطح، فيما رفاقه يتجولون في القرية ويدخلون عن طريق الفناء الخلفي. أغمض بيتر عينَي الرجل، ثم وضع الجثة فى عربة وأخذها إلى البيت.

عندما علم النبيل بالحادثة المميتة لمشرفه، والمعاملة الوحشية التي عامل بها من هم تحت إشرافه، حرر العبيد، مخصصا جزءًا صغيرًا من الإيجار لصالح أرضه والقطع الزراعية الأخرى.

وبذلك فهم الفلاحون بوضوح أن قوة الرب لا تتجلى فى الشر، إنما في الخير.

الفهـــرس

أما قبل: تولستوي.. وال100 كتاب.......... 5
مقدمـة.......... 9

1ـ موت إيفــان إيليتش 19
2ـ اليوشَـا الإنـاء 117
3ـ بعد الرقصــة 127
4ـ القيصر الشّـاب 143
5ـ مَا مِن مُذنبيــن 163
6ـ حُلــمي 181
7ـ الشّــمعة 201